

عدنان عبد الرحمن أبو عامر

أستاذ

جامعة الأمة للتعليم المفتوح

الإخوان المسلمون في الأراضي الفلسطينية المحتلة ١٩٦٧-١٩٨٧

• ملخص الدراسة

جاءت الدراسة لتبحث واقع الإسلاميين الفلسطينيين، وتحديدًا جماعة الإخوان المسلمين، في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧، من خلال تناولها لمراحل تطور عملهم بدءًا بالدعوة والعمل الوعظي، وبرد فعلهم على هزيمة يونيو ١٩٦٧، وصولاً للبحث في أسباب المد الإسلامي في الأراضي المحتلة، بما فيها الأسباب الداخلية والعوامل الخارجية، وأثر وجود الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة على انتشار مظاهر الصحوة الإسلامية، واتجاهات الرأي عقب الاحتلال، وبما يتعلّق بظاهرة انتشار المساجد، والدور القيادي للشيخ أحمد ياسين في إرساء دور الإخوان المسلمين، إضافة إلى أساليب العمل الإخوانية، والجوانب التنظيمية والمالية لديهم، وانتهاءً بنظرة الإخوان إلى العمل المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلي، وما واکب هذه المرحلة الحساسة من تفاعلات داخل وخارج التنظيم.

تسعى الدراسة لمناقشة الجوانب المذكورة آنفًا وغيرها استناداً إلى المنهج التاريخي، لاسيما الجانب التحليلي منه، بعيداً عن الطريقة السردية إلا فيما يلزم البحث، معتمداً على عدد وافر من المصادر والمراجع الجادة، وعدد من المقابلات التي أجريتها عدد من الشخصيات المحورية خلال مرحلة الدراسة.

• المقدمة

يجمع الباحثون المتخصصون في شؤون الحركة الإسلامية في فلسطين، أنها لم تحظ بذات المستوى الذي حظيت به القوى السياسية الأخرى، لاسيما في مراحلها التأسيسية والبدائيات الأولى، وما رافقها من ظروف وحيثيات وعلاقات، ولعل ذلك يعود إلى عدة أسباب، أهمها:

- القراءة الموضوعية للأحداث، بمعنى أن الحركة الإسلامية قبل مرحلة السبعينات لم تحظ بذلك الوجود السياسي الهام، بالمقارنة مع منظمة التحرير الفلسطينية وقواها السياسية.

- عدم إعطاء الاهتمام للجانب البحثي من جانب الحركة الإسلامية ذاتها، والتأريخ لمسيرتها منذ البدايات الأولى، تحت ذرائع وأسباب غير موضوعية، مقابل اهتمام القوى الأخرى بالكتابة عن جهودها مهما كانت متواضعة.

- الإهمال المتعمد من الباحثين ووسائل الإعلام للحركة الإسلامية، انطلاقاً من قناعات سياسية مختلفة عن الإسلاميين، وتخوفاً من أن يشكلوا منافساً لهم في المستقبل.

- الكتابات التي ظهرت في مراحل لاحقة لمرحلة التأسيس، لاسيما بعد انطلاق حركة المقاومة الإسلامية حماس نهاية الثمانينات، لم تتناول المرحلة التأسيسية بالتفصيل، مكتفية بالتعريض عليها، كمقدمة للحديث عن نشأة ظاهرة الإسلام السياسي في فلسطين.

وأياً كانت الأسباب، فإن الكتابة في تاريخ الإخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية المحتلة بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧، تكتنفه العديد من الملاحظات الهامة، لعل أهمها:

مرحلة أ- أتت فور وقوع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي، وما رافقها من تعرض الفلسطينيين لشتى ألوان المعاناة والظلم، وبالتالي فقد كانت إعادة الحياة للتنظيم الإخواني مهمة محفوفة بالمخاطر، ولذلك يسجل للثلة الأولى التي اجتمعت للبدء في هذه المهمة السبق التاريخي، وعلى رأسهم الشيخ أحمد ياسين.

مرحلة ب- انشغل المؤسسون للتنظيم الإخواني في الأراضي المحتلة، بوضع اللبنات الأساسية للبنية التحتية لهذا المشروع الذي قدر له أن يمتد عقوداً طويلة، بما في ذلك المؤسسات الخيرية باختلاف مجالات عملها الإغاثية والتعليمية والصحية، مما هيا لها القاعدة الشعبية المتسعة يوماً بعد يوم، خلال فترة زمنية وجيزة.

• نظرة الإخوان للاحتلال الإسرائيلي

شكلت الحروب بين العرب و«إسرائيل» دوراً كبيراً في بروز الصحو الإسلامية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وفي العالم العربي بشكل عام، حيث أدى انتهاء كل جولة منها نصراً أم هزيمة، إلى ظهور موجة جديدة من الصحو الدينية، حتى أن هزيمة ١٩٦٧ التي اعتبرها بعض

العرب «عقاباً من السماء» على انحرافهم عن جادة الإسلام، أدت إلى عودة جماعية للدين الإسلامي.

وقد كان وقع الاحتلال الإسرائيلي صعباً وقاسياً على الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن بينهم الإخوان، الذين اعتادوا العمل السري طيلة فترة الحكم المصري في القطاع تحديداً بين عامي ١٩٤٨-١٩٦٧، واعتادوا على أجواء الملاحقة والمتابعة، وبالتالي كانوا أقدر من غيرهم على التعامل المبكر مع هذه الظروف التي أوجدها الاحتلال.

ومما سهل الأمر على الإخوان في الضفة الغربية وقطاع غزة، أنهم لم يعودوا لوحدهم، فمئات الألوف من المواطنين أصبحوا عرضة للقمع والملاحقة من قبل سلطات الاحتلال، وقد تركزت الملاحقة في هذه المرحلة على المنظمات الفدائية التي شكلت الخطر الراهن على جنود الاحتلال، وهي منظمات «فتح والجبهة الشعبية وقوات التحرير الشعبية» التابعة لجيش التحرير الفلسطيني.

ولمواجهة الاحتلال الداهم، فقد تداعت قيادات ورموز جماعة الإخوان إلى اجتماع هام للتعامل مع الوضع الجديد، وتم اللقاء في شهر أيلول سبتمبر من عام ١٩٦٧ في منزل المرحوم محمد خليل الغرابلي بحي الشجاعية في مدينة غزة^(١).

وقد تركز هذا اللقاء التاريخي الهام على عدة محاور:

١- اختيار هيئة إدارية لقيادة الإخوان الفلسطينيين.

٢- تحديد المنهاج التربوي للعمل به في «الأسر الإخوانية»^(٢).

٣- اتخاذ قرار بكسب أعضاء جدد، عن طريق وسيلتين هامتين:

أ- الزيارات الفردية من قبل عناصر الإخوان للأعضاء المرشحين.

ب- الدروس والمواعظ الدينية في المساجد ودور العبادة^(٣).

ولوضع آلية عملية لتطبيق هذه المحاور، وضع المجتمعون عدة أهداف أساسية تكون منطلقاً هاماً لتحركهم في ظل هذا الواقع الجديد، وتمثلت هذه الأهداف بالآتي:

١- محو الصورة المشوهة عن الإخوان في أذهان الناس، وتجلية صورة مشرقة جديدة.

١- الحسانات، حماد، مخطوط حول نشأة الحركة الإسلامية، مرج الزهور، لبنان، ط١، ١٩٩٢، ص٣.

٢- مصطلح تنظيمي إخواني، وهي نظام تربوي شامل، يلتقي فيه كل خمسة أو ستة من الإخوان برجل يفترض أنه أفقهم في الدعوة، يقرأون القرآن ويحفظون منه، ويدرسون شيئاً من تفسيره، وكذلك الحديث النبوي، ولديهم منهاج تربوي دعوي من كتب فقهاء الإخوان كحسن البنا وسيد قطب وفتحي يكن ومحمد الراشد وغيرهم، ويكون اللقاء أسبوعياً، ويسمى شيخ الأسرة نقيباً، والغرض من الأسرة الإخوانية أن يصبح للعضو في التنظيم إخوة يلتقون دورياً كل أسبوع.

٣- أبو العمرين، خالد، حركة حماس: جذورها، نشأتها، دورها السياسي، جامعة الخرطوم، السودان، ط١، ١٩٩٤، ص٢٠٠.

٢- الانتشار السريع والواسع في المجتمع الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، لاسيما بعد الانكماش الطويل الذي ترافق مع الحكم المصري للقطاع.

٣- تحديد الموقف بصورة واضحة وحاسمة من الاحتلال الإسرائيلي، وبالتالي تحديد مسيرة الإخوان، ورأيهم فيما يجري على الأرض من وقائع.

٤- ربط إخوان قطاع غزة بنظرائهم في الضفة الغربية، وتم ذلك لأول مرة في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين^(١).

ومع ترسخ أقدام الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة، كان لابد للإخوان من مراجعة مع النفس، وإجراء وقفة مع الذات، في ظل وضع كان المرء يتلفت حوله فلا يجد أحداً من الجيل الجديد يهتم بالإسلام.

فالمسجد لا تجد فيه شاباً أو شابين يحافظان على الصلاة، وبالتالي لم تكن طريق الإخوان سهلة، ولا معبدة بالورود، ومع ذلك، فقد بدأت مجموعة ممن بات يطلق عليهم «الشباب المسلم»، يعتبرون طلائع هذا الجيل بالتفكير في الوضع القائم، ووقفوا أمام مفترق طريقين:

١- البدء بعملية حرب عصابات ضد الاحتلال، كما فعلت باقي المنظمات الفلسطينية، باستعمال نفس الشباب، الذين تربوا في ظل هذه الأنظمة والأفكار البعيدة عن الإسلام.

٢- الانطلاق بعملية بعث حضاري شامل للأمة في سبيل إحياء الإسلام في نفوسها، وبعدها تكون الانطلاقة نحو التحرير^(٢).

وهكذا بدأ فصل جديد من تاريخ الإخوان المسلمين في الأراضي المحتلة عقب هزيمة ١٩٦٧، حيث شرعوا بعملية البناء الهادئ للقوة الإسلامية، ولم يشاركوا في المقاومة المسلحة التي قادتها منظمة التحرير ضد الاحتلال، مكثفين بالتركيز على إقامة بنية تنظيمية واسعة.

وفي منتصف السبعينات، عندما وصلت الحركة القومية الفلسطينية إلى ذروتها، كان الإخوان منشغلين بإقامة بنيتهم الاجتماعية والسياسية^(٣).

الجدير بالذكر، أن عدداً من الباحثين في نشأة الحركة الوطنية الفلسطينية يرون بأن بروز حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة، جاء ليحول دون بروز الاتجاه الديني كقوة سياسية ذات بال، حيث عانى الإخوان المسلمون في قطاع غزة تحديداً من حالة ضعف وتشتت، بسبب إجراءات الملاحقة والاضطهاد التي تعرضوا لها من قبل الإدارة المصرية.

١- صالح، محسن محمد، التيار الإسلامي في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٩٨٨، ص٢١.

٢- المقادمة، إبراهيم، معالم في الطريق إلى تحرير فلسطين، مؤسسة اليم، غزة، ط١، ١٩٩٤، ص٢٥٤.

٣- شكيد، روني، حماس من الإيمان بالله إلى طريق التطرف، المكتبة المصرية الفرنسية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص٥١.

كما أن قيام حركة فتح في أواخر الخمسينات سلبهم خبرة قياداتهم وكوادرهم، ولذلك كانوا بحاجة إلى وقت طويل لاستجماع قواهم، والعودة إلى الساحة كقوة سياسية، الأمر الذي لم يتحقق إلا في أواخر مرحلة السبعينيات^(١).

• التغيير الاجتماعي سابق للحراك السياسي

تشير الوقائع والأحداث التاريخية إلى أن هذه المرحلة تميزت بـ«خفوت» التأثير الإخواني في مسار القضية الفلسطينية على الصعيدين السياسي والعسكري، واتجهت حركتهم في الأراضي المحتلة نحو نظرية «التغيير الاجتماعي»، وأعطوها الأولوية في نشاطهم وتحركهم في المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال.

كما رأوا أن هذا التغيير الاجتماعي سيقود إلى الحراك السياسي، ولذلك فلا بد من إحداثه حتى يصبح المجتمع ناضجاً لممارسة المقاومة الشاملة للاحتلال، لأن أي حركة ستقاوم الاحتلال لا يمكن أن تصمد بدون توفر الأرضية المناسبة والمناخ الملائم.

ويمكن إرجاع هذا التصور عند الجماعة إلى عاملين تاريخيين أساسيين:

١- العامل الأول: تمثل في الضربات الشديدة التي تلقاها الإخوان في بعض الأقطار العربية، وعلى الأخص في مصر، وكانت من العنف والشمول لدرجة أنها طالت معظم العاملين في صفوفهم، وقضت على الكثير من تنظيماتهم ومؤسساتهم، الأمر الذي انعكس سلباً وبشكل واضح على نشاط الإخوان الفلسطينيين، على أساس أنهم غير مفصولين عملياً عن إخوانهم خارج فلسطين.

٢- العامل الثاني: تمثل في حملة التشويه التي شنتها بعض الأنظمة العربية والقوى السياسية التي تحالفت معها، للتشهير بالحركة الإسلامية، وخلق الشكوك حولها، وقد امتدت ظلال هذه الحملة على شكل حرب إعلامية، وإشاعات قوية، عملت على تشويه صورة الإخوان الفلسطينيين لدى جماهير الشعب، في الوقت الذي كان فيه الإسلاميون يرزحون في السجون والمعتقلات العربية^(٢).

على أية حال، فقد قضى الإخوان جل وقتهم وجهدهم خلال هذه المرحلة في بناء المجتمع الفلسطيني، وأسهبوا في الأحاديث الطويلة عن أهمية تحصينه، وإعداده بصورة لازمة لخوض المعركة، وضرورة تربية الأجيال، ودور المرأة المسلمة، ومفاهيم التكافل الاجتماعي، منطلقين في ذلك كله من قاعدة أساسية تتمثل في أن بناء المجتمع المسلم ضرورة لازمة من ضرورات تحرير فلسطين.

١- أبو عمرو، زياد، الحركة الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة، دار الأسوار، عكا، ط١، ١٩٨٩، ص٢٩.

٢- الحمد، جواد، دراسة في الفكر السياسي لحركة حماس، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ط١، ١٩٨٨، ص٣٦.

وهكذا ارتبط مفهوم بناء المجتمع الفلسطيني بمفهوم الجهاد لدى الإخوان المسلمين، وإستراتيجيتهم القائمة عليه، لأن المجتمع هو البيئة التي تنهض بمشروع الجهاد وتحميه، وتوفر له عناصر الاستمرارية والنجاح^(١).

كما شكلت التوعية ببناء المجتمع أولوية من أولويات الحركة الإسلامية، كونه أداة التغيير الرئيسة في الواقع، وأساس التطوير الحضاري والمستهدف ضمن المشروع الإسلامي، والمتمثلة في بناء المجتمع المسلم بروابطه المتينة، وخضوعه لتعاليم الإسلام، وإبراز النموذج الإسلامي المتمتع بكل المزايا التي يجب أن تطبق في واقع المجتمعات العربية^(٢).

واستناداً إلى كل ما تقدم، فإن عملية البناء الاجتماعي على أسس عقائدية، بحسب فهم الإخوان المسلمين، باتت ضرورية وموازية لعملية مواجهة المحتل وتحرير الأرض، حيث تتكامل العمليتان ولا تتعارضان على النحو التالي:

١- الأولى تحصين المجتمع بالتربية.

٢- والثانية مواجهة الاحتلال بالمجتمع المحصن.

كما أن عمليتي التربية والإعداد، صبت خلاصتها في مصلحة برنامج المواجهة مع المحتل وتغذيته، عبر تنمية القيم الدينية الدافعة إلى البذل والتضحية والاستشهاد.

وربما شكلت الفترة التي تبعت انطلاق انتفاضة الحجارة أواخر عام ١٩٨٧ مؤشراً على نجاح فترة الإعداد التي سبقتها، فقد أنتجت مسيرة البناء والإعداد التي بدأتها الحركة الإسلامية، وقوداً ثرياً غنياً في تاريخ القضية الفلسطينية، من حيث أعداد المعتقلين والجرحى والشهداء من طلاب الكتل الإسلامية والجامعة الإسلامية، ومدرسيها والعاملين فيها، ومن شباب المساجد وروادها وأئمتها وأشبالها^(٣).

• أسباب انتشار الإخوان الفلسطينيين

يطلق على هذه المرحلة اسم «بناء الأنوية الصلبة»، التي تحملت أعباء الدعوة، وبناء الهياكل، وزيادة الانتشار، رأسياً وأفقياً، وإزالة آثار حملة التشويه التي حورب بها الإخوان المسلمون محلياً وإقليمياً.

وفي ظل هذه الأجواء استمر النشاط الإخواني بصعوبة بالغة، وكان أبرز سمات هذه المرحلة قيام الشيوخ والوعاظ في المساجد بنشر الدعوة الإسلامية بين الناس، خصوصاً الشباب، حيث

١- ماغزو، بول، اقتل خالد... اغتيال مشعل وصعود حماس، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٥٦.

٢- المركز القومي للدراسات والتوثيق، الندوة السياسية: خبرات الحركة السياسية في القرن العشرين، غزة، ط١، ٢٠٠٠، ص٤٥٤.

٣- صالح، جهاد، حماس.. نظرات في الفكر والممارسة، مكتبة المنار، الكويت، ط١، ١٩٨٩، ص٧٣.

قام المكلفون بالعمل التنظيمي بتجنيد من وصف بـ«الشباب الصالح» الذي تنطبق عليه الشروط. ومع هزيمة عام ١٩٦٧، بدأ يتبلور فهم جديد لدى الإخوان المسلمين يعطي للصراع على فلسطين مكانته الواقعية، حيث مثل الوجود اليهودي الصهيوني فيها أوج التحدي الغربي السياسي للأمتين العربية والإسلامية، بما في ذلك من انكشاف الخطر الثقافي والحضاري الشامل الذي مثلته «إسرائيل»، ليس على أرض فلسطين وشعبها فقط، وإنما على الأمة العربية جمعاء، لاسيما مع وضوح التحالف الاستراتيجي التام بين الحركة الصهيونية والغرب في هجمتهم على الأمة. ويمكن معرفة عوامل المد الإخواني في الأراضي الفلسطينية المحتلة في تلك المرحلة من خلال الأسباب التالية:

١- حرب ١٩٦٧: التي شكلت صدمة بالنسبة للفلسطينيين خاصة، وللعرب عامة، لم يستطيعوا استيعابها في الفترة الأولى، بل يمكن القول أنها كانت مفاجئة أكثر من هزيمة ١٩٤٨، نظراً لأن الأجواء التي سادت أثناء النكبة كانت مهياة لهزيمة العرب.

كما استوعب كثير من المثقفين والساسة العرب تلك الهزيمة لسببين:

أ- طبيعة الأنظمة العربية السائدة في تلك الفترة.

ب- الوضع العالمي الذي سيطرت عليه الدول الاستعمارية.

بينما عاشت الشعوب العربية قبل عام ١٩٦٧ نشوة المد القومي في مرحلة جمال عبد الناصر ١٩١٨-١٩٧٠^(١)، وتعتقد أن مسألة الانتصار على «إسرائيل» غير قابلة للشك، ومن هنا كانت المفاجأة قاصمة^(٢).

ومع وقوع الهزيمة، توضح مؤشر هام تمثل في فشل النظم العربية في مواجهة «إسرائيل»، وبالتالي فقد أعقب الهزيمة مباشرة، عودة التأثير إلى دائرة الساحة الفلسطينية، وبدء صحوة إسلامية جديدة فيها، كان من أبرز معالمها:

أ- تراجع المد القومي واليساري الذي شكل في فترة من فترات الصراع، أملاً تعلق به الجماهير الفلسطينية من أجل التحرير.

ب- بدء قيادات جديدة من المثقفين ممن ينتمون إلى أصول اجتماعية شعبية، تمارس دوراً

١- تولى السلطة في مصر بين عامي ١٩٥٤-١٩٧٠، ويعتبر قائد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢، شجع الثورات في الوطن العربي ودول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ولعب دوراً أساسياً في تأسيس منظمة التحرير سنة ١٩٦٤، يعتبر من أهم الشخصيات السياسية في العالم العربي، عرف عنه قوميته، واكتسب الكثير من المؤيدين، وبالرغم من أن صورته كقائد اهتزت إبان نكسة ١٩٦٧، إلا أنه ما زال يحظى بشعبية وتأيد كبيرين. توفي سنة ١٩٧٠، وكانت آخر مهامه الوساطة لإيقاف أحداث أيلول الأسود بين الأردن والمنظمات الفلسطينية.

٢- البرغوثي، إيداء، الأسلمة والسياسة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، مركز الزهراء للدراسات، القدس، ط١، ١٩٩٠، ص٣٩.

فعالاً في حركة الإخوان المسلمين.

ت- لم يعد الهدف الأول من الصحوه إقامة الدولة الإسلامية فقط، بل تقاطع معه العامل الوطني، بحيث يمكن للصدام مع الاحتلال أن يتواكب مع الدعوة لإقامة الدولة الإسلامية^(١).

وعلى صعيد التيار الإسلامي في فلسطين، اعتبرت حرب ١٩٦٧ «تتويجاً» لهزيمة الفكر القومي، وكانت الكارثة التي قصمت ظهور من وصفوا في كتابات الإخوان المسلمين بـ«الدجالين من دعاة التحرر والثورة، والأبطال المزيفين الذين أذلوا شعوبهم، وطاردوا دعاة الإسلام، وزجوا بالشباب الطاهر المسلم في السجون والمعتقلات، وحاربوا كل دعوة إسلامية مخلصه، وشجعوا الفساد والانحراف الفكري والسلوكي والأفكار المستوردة، فكانت الهزيمة نتيجة طبيعية لهذا السقوط، وعقوبة ربانية للأدعياء الطغاة»^(٢).

٢- الجوار الجغرافي في مصر والأردن: من خلال الشباب الفلسطيني الذين درسوا في جامعات البلدين في سنوات السبعينيات، وقد عاد هؤلاء الطلبة بعد أن أصبحوا أطباء ومهندسين إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، ليقوموا بالدعوة على غرار ما عاشوا في مصر والأردن، حيث استمر تدفقهم حتى نهاية السبعينيات وأوائل الثمانينات، وتحول الوضع الإخواني الفلسطيني تدريجياً إلى موقع تنظيمي بالغ الأهمية^(٣).

٣- ظهور النفط في الخليج: تأثر الفلسطينيون بالآلاف من أبنائهم الذين ذهبوا إلى بلدان الخليج العربي، حيث يتمتع الدين هناك بوضع قوي كـ«قانون وثقافة وقيم»، كما كان تأثير الخليج من خلال المساعدات المالية الحكومية والشعبية التي تدفقت على الأراضي الفلسطينية، خاصة بعد حرب تشرين أول أكتوبر ١٩٧٣^(٤).

وليس خافياً أن بعض دول الخليج وخاصة السعودية، دعمت العديد من النشاطات الإسلامية في فلسطين: سواء بناء المساجد، مساعدة الجمعيات الإسلامية، ولجان الزكاة^(٥).

٤- أحداث الثورة الإيرانية: التي ساهمت من خلال شعاراتها الإسلامية، والدور القيادي

١- الحمد، جواد، المدخل إلى القضية الفلسطينية، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ١، ١٩٩٧، ص ٣٨٣.

٢- أبو عامر، عدنان، الحركة الإسلامية في قطاع غزة بين الدعوة والسياسة، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٤٣.

٣- نافع، بشير، الإسلاميون الفلسطينيون والقضية الفلسطينية ١٩٥٠-١٩٨٠، مركز فلسطين للدراسات، غزة، ط ١، ١٩٩٩، ص ٢٥.

٤- تعرف بحرب تشرين وحرب يوم الغفران، ودارت بين كل من مصر وسوريا من جانب، وإسرائيل من الجانب الآخر، وبدأت بهجوم مفاجئ بتاريخ ٦ أكتوبر من قبل الجيشين المصري والسوري على القوات الإسرائيلية المربطة في سيناء والجولان، وتوقف إطلاق النار في ٢٤ أكتوبر، وهدفت مصر وسوريا إلى استردادهما بعد احتلالهما عام ١٩٦٧، وانتهت الحرب رسمياً بالتوقيع على اتفاقية فك الاشتباك، حيث وافقت إسرائيل على إعادة مدينة القنيطرة لسوريا، وضفة قناة السويس الشرقية لمصر، مقابل إبعاد القوات المصرية والسورية من خط الهدنة، وتأسيس قوة خاصة للأمم المتحدة لمراقبة تحقيق الاتفاقية.

٥- عمل، ماجد، موقف اليسار الفلسطيني من التيار الأصولي، مجلة قضايا فكرية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٤٣.

لعلماء الدين فيها، في إعطاء دفعة قوية للعمل السياسي الإسلامي في فلسطين.

وأثبتت هذه الثورة التي اندلعت أواخر العام ١٩٧٨، للمرة الأولى الإمكانية الفعلية لوصول الجماهير المؤمنة إلى السلطة بواسطة «الثورة الشعبية»، وبالتالي لم ينحصر تأثيرها فقط في الأهمية الإستراتيجية لإيران، لكنها أثرت على شكل وإستراتيجية العمل السياسي الإسلامي، وواقعية طموحه^(١).

وقد استفاد الإخوان المسلمون من تزايد تأثير الصحوة الإسلامية في العالم العربي تحديداً، والعالم الإسلامي عامة، وبدأ المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال يميل نحو قيم وسلوكيات محافظة تلقائياً، فهو مجتمع أغليته العظمى إسلامية، ويتأثر بالمناخ الإسلامي العام المحيط به.

ومن المؤشرات المرافقة لهذا التحول المتدرج والمستمر، ازدياد عدد المساجد والمصلين بصورة ملحوظة، وتسارع الالتزام بالمظاهر الإسلامية، كارتداء الأزياء الإسلامية من قبل عدد متصاعد من النساء، وإطلاق اللحي من قبل الرجال^(٢).

٥- تراجع منظمة التحرير: فقد كان لحرب عام ١٩٨٢ وغزو لبنان من قبل الاحتلال الإسرائيلي، تأثير سلبي على منظمة التحرير بفصائلها المختلفة لسببين:

أ- خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان.

ب- الانشقاق الذي حدث في حركة فتح.

ومما ساهم في انحسار نفوذ منظمة التحرير، ما أعطته التجربة اللبنانية أوائل الثمانينيات في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وما صاحبها من عمليات فدائية ضد الجيش الإسرائيلي وقوات «المارينز» الأمريكية، وبالتالي أعطى دفعة قوية للتيار الإسلامي في فلسطين.

إلى جانب ذلك، فقد عانت الفصائل الوطنية الفلسطينية الكثير من المشاكل والعقبات التي تكدست أمامها، وحالت دون تحقيقها للشعارات التي رفعتها، لعدة أسباب:

أ- التردد الكبير والتغييرات الجذرية التي طرأت على تلك الشعارات، من تحرير كامل التراب الفلسطيني وإقامة الدولة العلمانية، إلى تأسيس دولة فلسطينية في الضفة والقطاع، إلى الاتحاد الكونفدرالي مع الأردن.

ب- التخلي عن تبني الكفاح المسلح كطريق وحيد لتحرير فلسطين، إلى جعله أمراً هاماً يسير جنباً إلى جنب مع العمل السياسي، إلى اعتماد العمل السياسي السلمي خياراً وحيداً.

١- أبو عمرو، زياد، أصول الحركات السياسية في قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧، دار الأسوار، عكا، ط١، ١٩٨٧، ص٤٣.

٢- الجرباوي، علي، حماس... مدخل الإخوان المسلمين إلى الشرعية السياسية، الدراسات الفلسطينية، العدد ١٣، ص٧٥.

ت- وقوع الشباب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة وخارجها في اضطراب وخيبة أمل، وجعلت الكثيرين منهم يجدون في ثبات شعارات الحركة الإسلامية ملجأ لهم^(١).

٦- الطابع الديني للصراع: بات كثير من الفلسطينيين في تلك المرحلة مقتنعين بأن الصراع مع «إسرائيل» هو صراع ديني بالأساس، وأن السر الكامن وراء نجاح الإسرائيليين هو تمسكهم بدينهم، مما يجعلهم يعتقدون أن الاحتلال الإسرائيلي ليس تهديداً للأرض فقط، بل للهوية الوطنية والثقافية التي يشكل الإسلام عمودها الفقري.

وازدادت ثقة الفلسطينيين أنه كلما زاد الإسرائيليون في تطرفهم الديني اليهودي، كان ذلك داعياً لهم للعودة إلى الأصول الإسلامية، والتمسك بها أكثر.

• طفرة بناء المساجد

كانت الأوقاف في الضفة الغربية وقطاع غزة تابعة للحكم العسكري الإسرائيلي منذ عام ١٩٦٧، حيث يشرف ضابط إسرائيلي على المساجد الحكومية، مما أدى إلى انتشار ما بات يعرف بـ«المساجد غير الحكومية»، أو «المساجد الأهلية»، وكان يتم فصل إمام المسجد الحكومي من عمله، إذا تدخل في السياسة بطريقة لا ترضي الإسرائيليين، بينما يبقى العاملون في المساجد الأهلية بمنأى عن تدخل الاحتلال المباشر.

وقد أصبحت «المساجد الأهلية» في الأراضي المحتلة معاقل للإخوان المسلمين، بل نسبت إلى تلك التنظيمات الإسلامية، حسب التوجه السياسي للإمام والجمهور الذي يؤمها^(٢).

وللهروب من تدخل سلطات الاحتلال في شؤون المساجد، قام الأهالي في أحيان كثيرة بمبادرات شخصيات محسوبة على الإخوان المسلمين، بجمع التبرعات وبناء مساجد بعيدة عن سيطرة ضابط ركن الأوقاف وتدخلاته، حيث كان العمل فيها تطوعياً ولا يتلقى العاملون فيها رواتب من الحكومة الإسرائيلية، ولذلك كانت بمنأى عن التدخلات المباشرة، نظراً للحساسية الدينية التي تتمتع بها المساجد، مما أكسبها حصانة نسبية.

وبين العامي ١٩٧٠-١٩٨٨ تم بناء ١٤٠ مسجداً، وزاد عددها عن ستمائة، فيما لم تزد قبل الاحتلال الإسرائيلي عن المائتين، وبصورة إجمالية فقد بني من المساجد في فلسطين بعد عام ١٩٦٧ أكثر مما بني منذ فتحها المسلمون حتى ذلك التاريخ^(٣).

وقد وصف الإخوان المسلمون فترة ما بعد النكسة بين العامي ١٩٦٧-١٩٧٥، بأنها مرحلة المساجد، حيث هدفت إلى بناء المساجد، واستيعاب الجيل وتعبئته، ولملمة شتاته، وتأطير

١- البرغوثي، إياد، الإسلام السياسي في فلسطين: ما وراء السياسة، مركز القدس للإعلام، القدس، ط١، ٢٠٠٠، ص٤٩.

2- Zeev Schiff and Ehud Yaari, Intifada: The Palestinian Uprising, Simon & Schuster, 1989, p242.

٣- موراي، إيان، الإسلام يشكل المقاومة في الأراضي المحتلة، جريدة القبس، الكويت، ١٤/١٠/١٩٨٧.

توجهه، وتركيز عقيدته، وتعميقها لمواجهة التيار الصهيوني^(١).

وعلقت مجلة «التايمز» اللندنية على ظاهرة زيادة عدد المساجد بقولها: «إن السبب الرئيسي لزيادة عدد المساجد عما كانت عليه في بداية الاحتلال هو تنامي التيار الإسلامي، ومن مظاهر ذلك الأعداد الكبيرة من المسلمين الذين يأتون للصلاة في المسجد الأقصى، مع أنه لم يكن يؤدي الصلاة فيه سوى عدد قليل جداً من الرجال قبل عشرين عاماً»^(٢).

وهكذا شكلت المساجد في الضفة الغربية وقطاع غزة، رموزاً حقيقية للهوية الدينية والاجتماعية، لجمهور كبير من المواطنين في هذه المنطقة، وعمل الإخوان المسلمون منذ بداية تحركهم، لتشكيل مراكز تجمع ونقاط انطلاق وملاجئ لهم، وللخلايا والحلقات التابعة لهم في هذه المساجد.

وسعت الحركة «المحرومة» من التعبير السياسي العلني، إلى استخدام منابر المساجد ودور العبادة للتعبير عن آرائها ومواقفها، كما أن هجمات المتطرفين اليهود على الأماكن المقدسة أدت إلى تقوية تعلق المواطنين بها.

ونجح الإخوان في الوصول إلى المساجد عبر إقامة علاقات طيبة من خلال زيارة أئمة المساجد، وقيام عناصرهم بحملات جمع التبرعات وتنظيف المساجد، وإصلاح ما يعطل من أجهزة فيها، بحيث باتوا جزءاً لا يتجزأ من أسرة المسجد، ولا يستطيع الإمام الاستغناء عنهم.

وقد أتعن الإسلاميون اختيار الأوقات المناسبة لتشييد وبناء المساجد الجديدة، حيث اعتادوا اختيار أيام السبت، حيث إجازة القيادة العسكرية الإسرائيلية، ويقومون باستدعاء مئات العمال لأعمال البناء والتشييد ليكون مسجداً للعائلة أو الحي في أقل من أربع وعشرين ساعة.

وقد أوضح المستشرق الإسرائيلي «شالوم هراري» لاحقاً هذه الظاهرة الفريدة بقوله: «في صبيحة يوم الأحد، كنا نستيقظ لنرى مسجداً لم يكن موجوداً يوم الجمعة»^(٣)!

فيما عبر الدبلوماسي الأمريكي «دان كرتزر» عن ذلك مشدوهاً بالقول: فجأة، يكون هناك مبنى أخضر وأبيض، حيث لم يكن موجوداً في الأسبوع السابق»^(٤).

كما سيطر الإخوان المسلمون في الأراضي المحتلة وفقاً للتقديرات، على نحو ٤٠٪ من إجمالي المساجد حتى عام ١٩٨٧، وكانت طرق السيطرة كثيرة ومتنوعة، كالمعونات المالية والتبرعات، وإقامة المكتبات في المساجد.

١- حيدر، خليل، الحركات الإسلامية في الدول العربية، مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، أبو ظبي، ط١، ١٩٩٨، ص٣١.

٢- جبارة، تيسير، دور الحركات الإسلامية في الانتفاضة الفلسطينية، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٩٩٢، ص١٩.

٣- معاريف، ١٩/١٢/١٩٨٥.

٤- يديعوت أحرونوت، ٢٨/١١/١٩٨٥.

ولم يكن للإدارة المدنية الإسرائيلية أية وسيلة للإشراف على نشاط المساجد أو توجيهها، وأكد تقريرها لعام ١٩٨٥ أنه ليس لديها أية سيطرة على المساجد، وما يجري حولها.

واعتقدت سلطات الاحتلال أن المساجد لعبت دوراً موازياً للدور الذي أدته الجامعات والسجون والمعتقلات، حيث تم تجنيد الأفراد داخلها، وزعمت أن الإخوان المسلمين استخدمت المساجد في تأمين تخزين الأسلحة القتالية، نظراً لما يوفره طابعها الديني من خصوصية تبعد عنها الشبهات^(١).

وفي العام ١٩٨٤، كتب المسئول الأمني الإسرائيلي «أمنون كوهين» تقريراً عن المساجد في محاولة منه لإعاقة بنائها، ومقترحاً حظر بناء أي مسجد جديد دون توصية من القيادة العسكرية للأراضي المحتلة، وموافقة القاضي المحلي وممثلي الوقف، وتقديم طالب البناء طلباً بالتصريح من اللجنة المحلية، وقائمة بأسماء مجلس الإدارة، والعاملين بالمسجد لإجراء فحص أمني عليهم^(٢).

وطيلة الوقت، لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط، بل تجري فيه معظم الأمور الاجتماعية، فالصلاة فيه، والاعتصام ضد المحتل تحت قبته، والإفطار الجماعي في صحنه، وتوبة العميل في رحابه^(٣)، وجمع التبرعات وتوزيع الصدقات فيه.

وبالإمكان إدراك حساسية دور العبادة عند الحركة الإسلامية، بما ميز الإسلاميين عن القوى السياسية الأخرى، بانفرادهم بمؤسسة المساجد، ولم ينازعهم فيها أحد، فضلاً عن أثرها الكبير في مجتمع أغليبيته من المسلمين كالمجتمع الفلسطيني^(٤).

ولذلك، فقد تعدى دور المسجد لأكثر من كونه مكاناً فقط للصلاة والعبادة:

أ- فقد أصبح معقلاً لإقامة الندوات والاجتماعات التي تكون أحياناً بشكل دوري.

ب- وقاعات لتحفيظ القرآن الكريم، حيث تتخذ دور القرآن من المساجد مقرات لها.

ت- وساحة لإقامة الاحتفالات الدينية.

ث- وغالباً ما يكون له مكتبته الخاصة.

ج- ويكون له فريقه الرياضي الخاص، وتجري مباريات تحت عنوان دوري المساجد.

١- المدهون، ربعي، الحركة الإسلامية في فلسطين ١٩٢٨-١٩٨٧، شؤون فلسطينية، العدد ١٨٧، أكتوبر ١٩٨٧، ص ٢٧.

٢- شكيد، مرجع سابق، ص ٧٦.

٣- عادة درجت عليها القوى الوطنية تعفو خلالها عن العملاء المرتبطين بالاحتلال الإسرائيلي، بحيث يعلن العميل عن توبته الحقيقية عن التعامل مع سلطات الاحتلال داخل المسجد.

4- Ira Lapidus, Islam Political Movements... Patterns of Historical change, University of California press, 1988, p50.

ح- وله مجلة حائط، وفيه توزع منشورات الاتجاهات الإسلامية، ومنها تعمم الأخبار التي تهم الجمهور، وعلى أبوابها تعلق الإعلانات الهامة.

خ- وله دور بارز في تنظيم الزيارات الجماعية للمسجد الأقصى المبارك.

د- كما برزت فيه ظاهرة الإفطارات الجماعية، والاعتكافات في شهر رمضان، التي عمت الكثير من مساجد الأراضي المحتلة^(١).

عموماً، فقد شكل المسجد لفترة طويلة، خاصة بين العامي ١٩٦٧-١٩٨٧، مركزاً للتجمع الديني والاجتماعي والثقافي.

• مركزية الشيخ أحمد ياسين^(٢)

كان الشيخ أحمد ياسين رائد هذه المرحلة، فقد برع في استقطاب الفتيان والشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥-٢٠ عاماً، وكون له قاعدتين دعويتين في مدينة غزة:

١- القاعدة الأولى في المسجد الشمالي بمخيم الشاطئ.

٢- القاعدة الثانية في مسجد العباس بحي الرمال.

وكانت الجلسات الأسبوعية بداية لتنظيم هؤلاء الشباب، الذين سيحملون على عاتقهم مهمة العمل الإسلامي في الجامعات المصرية والأردنية، وفي دول الغرب.

ومع التقيد بالعمل الدعوي في هذه المرحلة، إلا أن إشارات ذات مغزى ظهرت أحياناً وكشفت عن نوايا الإخوان وتطلعاتهم، وفي مقدمتهم الشيخ ياسين من خلال موقفين هاميين:

أ- فقد سمى ولده الأول «عائد» قبل حرب عام ١٩٦٧، ولما توفي، وجاءه الولد الثاني سماه بذات الاسم، وجاءت البنت الأولى ليسميتها «عائدة».

ب- عندما أسندت قوات الاحتلال قيادة قطاع غزة إلى الجنرال «أريئيل شارون»^(٣) الذي

1- Azzam Tamimi, Hamas: Unwritten Chapters, Hurt Company, 2007,p44.

٢- زعيم فلسطيني، بدأ نشاطه السياسي بالمشاركة في المظاهرات الاحتجاجية على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وأظهر قدرات خطابية وتنظيمية. ولع نجمه في غزة، مما لفت إليه أنظار المخابرات المصرية، فاعتقلته، وظل حبيس الزنزانة الانفرادية، ثم أفرج عنه. بعد هزيمة ١٩٦٧ استمر في إلهاب مشاعر المصلين من فوق منابر غزة، ونشط في جمع التبرعات ومعاونة أسر الشهداء والمعتقلين، ثم عمل رئيساً للمجمع الإسلامي، وأنشأ أول مجموعة عسكرية عام ١٩٨٤ لمقاومة الاحتلال، إلا أنه اعتقل وحكم عليه بالسجن المؤبد، ولم يطلق سراحه إلا ضمن صفقة تبادل أسرى، وبعد اندلاع الانتفاضة أواخر عام ١٩٨٧، أسس حركة حماس، حيث اعتقلته سلطات الاحتلال عدة مرات، وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة، وأفرج عنه في تشرين الأول ١٩٩٧. تعرض للاغتيال عدة مرات، إلا أن يوم الاثنين الموافق ٢٢ آذار ٢٠٠٤، شهد استشهاده وهو ابن ٦٥ عاماً، بصاروخ إسرائيلي حول جسده القعيد إلى أشلاء متناثرة.

٣- جنرال إسرائيلي، انخرط في صفوف الهاغاناه، كُلف بتشكيل وحدة ١٠١ بعد تنفيذ مجزرة قبية، وتولى قيادة فرقة مظليين خلال حرب سيناء، ثم عُيّن قائداً للواء الجنوب، وقاد حملات اغتيالات واعتقالات ضدّ المقاومين في غزة. سعى لتعميق الاستيطان، وأقام علاقات مع الحركات الاستيطانية، ومن أشد معارضي اتفاقيات «كامب ديفيد». تولى حقيبة الدفاع في حكومة «بيغن»،

استخدم كل أساليب القمع والإرهاب للقضاء على العمل الفدائي في الأراضي المحتلة، وحين حوَصر مخيم الشاطئ للاجئين عدة أسابيع، وقف يومها الشيخ ياسين على منبر مسجد العباس في خطبة الجمعة ليلهب حماس الناس، حيث خرجت المظاهرة الحاشدة عقب الصلاة، تتحدى قوات الاحتلال، وتطالب بكسر الطوق عن المخيم، فيأمر الاحتلال بمنعه من الخطابة^(١).

لقد ركز الشيخ ياسين نشاطه الحركي الإسلامي في السنوات الأولى التي ضعف فيها الإخوان المسلمون في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتمكن من إنشاء هياكل تنظيمية، وبدأ بعملية جمع التبرعات، وحين أصبح بحوزته مبلغٌ من المال أنشأ مسجداً صغيراً شمال المخيم، وأقام فيه فصولاً تعليمية، وبجواره نادياً اجتماعياً، وملعباً صغيراً لكرة القدم، ونظم المسابقات الرياضية، وفي الصيف أقام المخيمات الصيفية للأطفال^(٢).

وقد برز الشيخ ياسين، وتميّز بسعة المعرفة، وقدرته التنظيمية، وقيادته الجذابة والمحبوبة، وشخصيته (الكاريزماتية) في أوساط أبناء جيل الشباب داخل سكان المخيمات، وذو حضور ديني واجتماعي بارز في الأراضي المحتلة.

كما ساهمت صفات التفاني في خدمة الناس، والعمل على قضاء حوائجهم ومواساتهم، والوقوف الدائم إلى جانبهم، في نشوء حالة من الاحترام والتقدير له في معظم الأوساط، وصلت ذروتها في السعي إليه للاحتكام في المنازعات، وفض الخلافات، وقبول الحكم الذي يصدر عنه^(٣).

وجاء النجاح الذي حصده الإخوان بزعامة الشيخ ياسين من خلال توسيع صفوف الحركة، وتعدد نشاطها داخل الجماهير، نظراً لعدة أسباب لعل أهمها ذلك الواقع الاجتماعي والاقتصادي الصعب في الضفة الغربية وقطاع غزة، الذي يعتبر معظم سكانها لاجئين من أصل قروي، وإن تخرّج جيل كبير من الجامعات خلال سنوات السبعينيات والثمانينيات، وأصابتهم حالة من الإحباط إلى حد كبير بسبب فقدان الأمل في التقدم الاجتماعي والاقتصادي، خاصة تحت سيطرة الاحتلال الإسرائيلي زاد الالتفاف حول الحركة.

هذه الخلفية المليئة بالتقاليد الإسلامية، وظروف العيش الصعبة، والمحبة من جانب، ومن جانب آخر الانفتاح نحو الحداثة، منح الخيار الإسلامي الطريق السهلة، والتمرد على الواقع

ودعا للتخلص من منظمة التحرير، وإخراجها من لبنان بالكامل، ونفذ مذابح صبرا وشاتيلا سنة ١٩٨٢، التي راح ضحيتها الآلاف من الفلسطينيين، انسحب من قطاع غزة عام ٢٠٠٥، وترأس الحكومة الإسرائيلية بين عامي ٢٠٠١-٢٠٠٦.

1- Avraham Diskin and Shaul Mishal , Coalition Formation in the Arab World :an Analytical Perspective, International Interactions, vol. 11, 1984, p44

٢- شاؤول مشعال وأبراهام سيلع، عصر حماس، دار يديعوت أحرونوت، تل أبيب، ١٩٩٩، ط١، ص١٥٤.

٣- أبو عمرو، زياد، الحركة الإسلامية في الضفة الغربية وقطاع غزة، عكا، دار الأسوار، ط١، ١٩٨٩، ص٢٣.

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للحياة تحت الاحتلال الإسرائيلي^(١).

ونظراً لنشاط الشيخ ياسين في صفوف الإخوان المسلمين، فقد طاردته السلطات المصرية، وسجنته عام ١٩٦٦ بتهمة التخريب ضد النظام الحاكم، من خلال موجة الاعتقالات التي صاحبت إعدام «سيد قطب» في مصر، وعلى عكس ما حدث مع زملائه، فلم يتم تحويله إلى السجن العسكري نظراً لظروفه الصحية، بل أدخل السجن في غزة، وبعد مرور شهر أطلق سراحه.

ومع ذلك، فقد كان للعمل الدعوي الذي شرع به الشيخ ياسين ورفاقه نتائج على المدى البعيد، فما إن جاء عام انتفاضة الحجارة ١٩٨٧، حتى كان الإخوان المسلمون قد ثبتوا وجودهم في معظم المؤسسات المتواجدة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأنشأوا مؤسساتهم الخاصة بهم في قطاع غزة والضفة الغربية.

إلى جانب أن ثقلهم من «التراكم الكمي» بلغ ما يكفي لإحداث تغيير نوعي حاد، وكان لا بد لهذا التغيير أن يتطرق إلى سلوكهم العملي تجاه الاحتلال الإسرائيلي، وتمثل ذلك بحدوث الانتفاضة، وبسبب متطلبات الأيديولوجية التي يجب أن تستمر بشكل أو بآخر لدى حركة تعتمد الدين منهجها وفكرها وهدفها، وتعتمد التعبئة المستمرة ضد اليهود، التي يجب أن تتجسد في الواقع العملي^(٢).

• وسائل وأساليب الإخوان

يمكن القول أن نشاط الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة اقتصر في هذه المرحلة بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧ بصورة عامة على الأمور الدينية والاجتماعية، ولم يكن ذا طابع سياسي واضح أو محدد.

إلا أن تراجع نضال الحركة الوطنية الفلسطينية، وبعض العوامل الداخلية والخارجية، أفسح المجال أمام الجماعة كي تقوم بنشاط سياسي ملحوظ، خصوصاً داخل الجامعات، وتركز هذا النشاط أساساً في مواجهة أفكار ونفوذ الفصائل الوطنية المنضوية في إطار منظمة التحرير، والتصدي لتهجها العلماني، ولم يخصص سوى جزء من جهد الجماعة لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي مباشرة^(٣).

كما استطاع الإخوان المسلمون في هذه المرحلة الاتصال اليومي بالجماهير في الأراضي المحتلة، والتأثير فيها، من خلال النشاطات والاحتفالات الدينية والاجتماعية، كذكرى ليلة القدر،

1- Shaul Mishal and Reuven Aharoni, Speaking Stones Communiqués from the Intifada Underground, Syracuse University Press, 1994, p40.

٢- أبو عامر، مرجع سابق، ص ٧٥.

٣- أبو عمرو، زياد، حماس خلفية تاريخية وسياسية، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ١٣، شتاء ١٩٩٣، ص ٨٦.

الإسراء والمعراج، والمولد النبوي وما شابه.

ومن المعروف أن الاحتفالات الدينية لا تخضع لذات القيود التي تتعرض لها النشاطات الوطنية والسياسية، لاسيما وأن الإخوان المسلمين نجحوا في تطوير أساليب خاصة في هذه النشاطات والاحتفالات، لا يسمح فيها بالاختلاط أو الغناء أو الرقص، حيث يجتمع الرجال في الأعراس مثلاً في قاعة يستمعون فيها للآيات القرآنية والمواعظ، أو الأناشيد الدينية، ويشاهدون العروض المسرحية الإسلامية ذات الدلالات والعبر الأخلاقية^(١).

وهكذا ارتبط بناء المجتمع الفلسطيني بمفهوم الإخوان المسلمين، وإستراتيجيتهم القائمة على الجهاد، إذ أن هذا المجتمع هو البيئة التي تحميه وتنهض به، وتوفر له عناصر الاستمرارية والنجاح^(٢).

وبالتالي فقد أثمرت النشاطات الإخوانية في الأراضي المحتلة في فترة السبعينيات، وظهر ذلك جلياً بصورة واضحة، في النتائج التي أسفرت عنها دراسة ميدانية أجريت في النصف الأول من العقد السابع من القرن العشرين بين عامي ١٩٧١-١٩٧٢ على مجموعة من أصحاب المهن الحرة في بعض المناطق الفلسطينية، وأوضحت أن ما يقرب من ٥٥% ممن تم استجوابهم، فضلوا أن يدمج الدين في الحياة الاجتماعية، كما ظل الإسلام هو الإطار المرجعي للغالبية العظمى منهم^(٣).

وقد وظفت الحركة الإسلامية عدداً من الوسائل والأساليب لزيادة مدها وانتشارها الجماهيري، ومنها :

١- خطباء المساجد: فقد احتل إمام المسجد مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع، ولعب أدواراً دينية وثقافية واجتماعية مميزة، وكان يشكل لجاناً لمساعدته، حيث سيطر شباب الإخوان المسلمين على نصيب كبير منها، وبدأت تتراجع من الذاكرة صورة الإمام الطاعن في السن لتحل مكانها صورة الإمام الشاب، كما اختلفت النظرة السائدة للمسجد على أنه مكان للعبادة والصلاة فقط، إلى مكان يلعب دوراً نشطاً في الحياة المجتمعية.

٢- دروس الوعظ والإرشاد: من خلال حلقات الدروس، التي كانت تعطى في المساجد والساحات العامة، والندوات الدينية، إلى جانب المنتديات الاجتماعية، لتعريف الأعضاء المحتملين على المواعظ والدروس الدينية، ونشر فكر الإخوان شفاهة في الحلقات التعليمية.

٣- الأعراس الإسلامية: التي بدت في تلك المرحلة غريبة، والإقبال عليها ضعيفاً، ونظر

١- الحروب، خالد، حماس الفكر والممارسة السياسية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٢٦٠.

٢- عوض خليل، جذور الإسلام السياسي في فلسطين، شؤون فلسطينية، العدد ٢٢٧، مارس ١٩٩٢، ص٢٣.

٣- مصطفى، هالة، التيار الإسلامي في الأرض المحتلة، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ١١٢، يوليو ١٩٨٨، ص٨٢.

إليها الناس على أنها مؤشر تخلف ورجعية، إلا أن الإخوان بدأوا من خلالها ينشرون المسرح الإسلامي في مناطق مختلفة من الضفة الغربية وقطاع غزة، وسرعان ما أصبح الناس كلهم في شوق لإقامة هذه الحفلات الإسلامية، حيث حرص الإخوان على تأسيس العديد من الفرق الفنية، للنشيد والمسرح، ولديهم اليوم تراث طويل من الإنتاج الفني.

٤- الكتب الإسلامية: التي أنارت الطريق للقراء في العثور على الحل الصحيح لمستقبل أفضل، والتخلص من الاحتلال، حيث لجأ الإخوان إليها في نشر أفكارهم، وتوسيع نفوذهم، لاسيما تلك الكتب الدينية الصادرة عن قادة الفكر الإسلامي^(١).

وقد اكتظت رفوف المكتبات الإسلامية بالمئات من هذه الكتب والأدبيات، حيث جرى استيراد معظمها من الخارج، ومن أشهرها: رسائل الإمام حسن البنا، كتابات سيد قطب، محمد قطب، محمد الغزالي، رياض الصالحين، الأربعين النووية، المنهج الحركي للسيرة النبوية، سلسلة العوائق، الرقائق، المنطلق، لعبة الأمم، الخطر الصهيوني، وغيرها.

وقد انتشرت هذه الكتب في عقدي السبعينات والثمانينات بشكل رائع، حتى أن دور النشر التي أرادت زيادة دخلها، كانت تزيد من طباعة الكتب الإسلامية.

وقد جرى نشر ثماني مجلات بشكل منتظم أو متقطع من قبل المؤسسات والكتل الطلابية المختلفة التابعة للإخوان المسلمين، وركزت محتوياتها على المسلكية الفردية، ووصف الثقافة السائدة بأنها مشوهة بفعل تأثير الغرب، والدعوة للعودة إلى الإسلام، والتحريض ضد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وتوجيه النقد للقوى الوطنية المحلية، ووصف الاحتلال الإسرائيلي بأنه «لعنة أو عقاب من الله»، لأن الفلسطينيين ابتعدوا عن طريق الإسلام الحقيقي، وإن السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو العودة للإسلام.

وفيما يخص المنهاج التربوي للأسر الإخوانية، فقد كانت كتب الفقه والسيرة والتفسير، والكتب الحركية، والمنشورات والدراسات التي تناولت القضية الفلسطينية^(٢).

٥- لجان الإصلاح الاجتماعي: دخل الإخوان هذا المجال باعتباره من المجالات الاجتماعية المهمة، حيث توسط المجمع الإسلامي لتسوية النزاعات بين العشائر، في مجتمع تقليدي ذي روابط عائلية تحدها رابطة الدم كالمجتمع الفلسطيني، على أن يكون للتوسط والتحكيم المتفق عليه آلية العمل في تسوية النزاعات، وكان للجان الإصلاح التابعة للمجمع التي هُبت للدفاع عن أبناء الطبقات الضعيفة والفقيرة، أثراً كبيراً منحها قوة جذب داخل هذه الطبقات^(٣).

١- الطيب، توفيق، الحل الإسلامي ما بعد النكبتين، دار المختار الإسلامي للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٩، ص ٦٤.

٢- يمكن الرجوع إلى كتاب عبد الحليم محمود: وسائل التربية عند الإخوان المسلمين، دار الوفاء للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٩٠.

٣- سارة، فايز، الحركة الإسلامية في فلسطين.. الأيديولوجيا والسياسة، المستقبل العربي، ١٢٤٤، يونيو ١٩٨٩، ص ٦١.

٦- العمل المؤسساتي: عمل الإخوان على تعميم الانتشار الواسع للتيار الإسلامي في الأراضي المحتلة، من خلال إنشاء جمعيات أهلية، لإضفاء الصبغة القانونية لنشاطاتهم الاجتماعية، رغم أن طلبات للشيخ ياسين بإنشائها رفضت من قبل الحكم العسكري حتى سنة ١٩٧٠، وبضغوط من قبل أوساط تقليدية، أنشئت الجمعية الإسلامية كوسيلة للعمل الجماهيري والديني، وفتحت لها فروعاً في التجمعات السكانية المهمة^(١).

٧- الأنشطة الرياضية: حيث كان الإخوان يشرفون عليها مباشرة، ويعقدون البطولات والمباريات مع المساجد الأخرى، وهو نشاط كان يغلف بالطابع الدعوي، حيث يسبق المباراة أو التدريب درس خفيف ودعاء ديني، والأمر ذاته عند انتهاء النشاط.

كما وجد عناصر الإخوان طعماً للرياضة في إطار المسجد، حيث يصلون الفجر، ثم ينزلون ساحة الملعب يستمعون إلى درس، ليس فقط عن طريق مدرب رياضي، وإنما مربّي يقوم بتوجيهاته التربوية والأخلاقية.

وهكذا شكلت الرياضة عامل جذب يستخدمه الإخوان لاستقطاب المزيد من الأنصار، فكان الأخ يجد مع الرياضة وجبات إيمانية، وجرعات أخلاقية، مما كان له أثراً كبيراً في توسيع إطار أنصار الحركة في ذلك الوقت.

• الموقف من المقاومة المسلحة

لقد علّت قيادة الإخوان المسلمين تركيزها على الشعائر الدينية والمفاهيم العقائدية، انطلاقاً من تركيزها على تعبئة الأمة، وحشدتها لمعركة التحرير، لأن الفلسطينيين بمفردهم لا يستطيعون الانتصار في المعركة.

كما أن تحقيق التعبئة والحشد -وفق مفهومهم- لا ينجزان إلا على أرضية إسلامية، تؤدي لإنتاج جيل مسلم ملتزم بالدين ومستعد للتضحية، ويبدأ ذلك بصوغ الفرد صوغاً إسلامياً عقائدياً، وهي نقطة البداية التي كرسوها في إطار محدد الملامح والقسمات، وبذلك نظروا إلى الافتراق عن الحركات المبادرة لتبني المقاومة المسلحة، على أنه اختيار بين طريقتين:

١- أن تبدأ بعملية قتال عصابات ضد الاحتلال الإسرائيلي كباقي المنظمات الفلسطينية، وتستعمل نفس الشباب الذين تربوا في ظل هذه الأنظمة والأفكار البعيدة عن الإسلام، وبهذا تكون امتداداً لكل ما حدث في الماضي، وتعيد تكرار أخطائه.

٢- أن تبدأ بعملية بعث حضاري شامل للأمة في سبيل إحياء الإسلام في نفوسها، ومن ثم، بعد عملية البعث هذه، تكون الانطلاقة نحو التحرير^(٢).

١- الجرباوي، علي، الانتفاضة والقيادات السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص٣٧.

٢- المقادمة، مرجع سابق، ص٢٥٤.

ويشير السياق التاريخي لبروز الصوت الحركي الإسلامي وخفوته في فلسطين، ومنذ فترة مبكرة من القرن العشرين، إلى أن فترات تنامي نفوذه، وتعاظم قوته، تزامنت مع انخراط الإسلاميين التام في الكفاح الوطني المعني مباشرة بمقاومة الاحتلال الأجنبي: الاستعمار الإنجليزي أولاً، ثم الغزو والاستيطان الصهيوني تالياً.

وقد مثلت تلك المقاومة، ولا تزال، بوابة الشرعية السياسية والجماعية، كونها التعامل الأصح والمتوقع مع جوهر القضية المركزية في فلسطين، وهي قضية اغتصاب الأرض، ووجود الاحتلال الأجنبي، ويمكن الاستدلال بتصاعد نفوذ الإخوان المسلمين وشعبيتهم في مطلع الخمسينيات، وفي نهاية الثمانينات، مع انطلاق حركة المقاومة الإسلامية حماس، وانخراطها في مشروع المقاومة^(١).

وهكذا لم تكن الفجوة السياسية بين الإخوان المسلمين ومنظمة التحرير الفلسطينية بشأن المقاومة المسلحة نفسها، وإنما حول مسألة التوقيت، فقد اختار ياسر عرفات^(٢) ورفاقه في الفصائل الوطنية الكفاح المسلح لاستعادة فلسطين منذ أواخر الخمسينات، لكن الشيخ ياسين بقي ملتزماً بفكر الإخوان المسلمين القائم على أن تحرير الأرض يأتي فقط نتيجة لبرنامج طويل ومكثف من التعليم الأيديولوجي، والديني، والنفسي.

أكثر من ذلك، فإن الإسلاميين الفلسطينيين رأوا أن راية الإسلام هي التي أخرجت الصليبيين من القدس في القرن الثاني عشر، وبمواجهة تكرار فشل من وصفوهم بـ«العرب العلمانيين»، كانت هناك حاجة إلى الروح المعنوية نفسها في أواخر القرن العشرين.

حتى أن قيادات الإخوان في الأراضي المحتلة اعتقدوا على نطاق واسع أن الفلسطينيين لا يمكن أن يكونوا سوى «رأس حربة»، لمساعدتهم في طرد اليهود من فلسطين، وكانوا بحاجة لأن يقوم نظراؤهم بإنشاء دولة إسلامية في إحدى الدول المجاورة^(٣).

كما اعتبر الإخوان المسلمون الفلسطينيون أن الطريق التي اختاروها في هذه المرحلة هي الأصعب، فليس أسهل على الشباب المليئة قلوبهم بالحماسة والاندفاع، من حمل السلاح، والانطلاق نحو قتال الاحتلال الإسرائيلي، وهذه الطريق توحى لسالكها بقصرها، والعكس

١- دخان، عبد الفتاح، الإخوان المسلمون وقضية فلسطين في القرن العشرين، مركز النور للبحوث، غزة، ط١، ٢٠٠٤، ص٢٧٦.

٢- من رموز حركة النضال الفلسطيني، أول رئيس للسلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤، ترأس منظمة التحرير عام ١٩٦٩، تزعم حركة فتح، وقاد مسيرته من عدة بلدان عربية بينها الأردن ولبنان وتونس، وأسس قواعد مسلحة في بيروت، ثم خرج إلى تونس بعد محاصرته من قبل القوات الإسرائيلية، وجاء أهم تحول سياسي في مسيرته بقبول بقرار ٢٤٢، وبعد انعقاد مؤتمر مدريد والقبول بحل الدولتين، دخل في مفاوضات سرية مع الإسرائيليين، تمخضت عن اتفاق أوسلو، وحظي على جائزة نوبل بالمنافسة مع «إسحاق رابين»، وما لبث أن حاصره الاحتلال في مقر إقامته برام الله، إلى أن انتقل إلى رحمة الله بتاريخ ١١ تشرين الثاني ٢٠٠٤، بعد تسميمه من المخابرات الإسرائيلية.

٣- ماغوو، مرجع سابق، ص٦٣.

صحيح، فكيف تقنع هؤلاء الشباب بمقاومة إغراء السلاح، وقصر الطريق، والتوجه نحو الطريق الذي يبدو طويلاً، وغير محددة نهايته؟

وهكذا، التقت الظروف الموضوعية والذاتية في تبرير ابتعاد الإخوان الفلسطينيين عن ساحة العمل الفدائي، مع التوجهات الأساسية في فكرهم، حيث أنهم يعطون المسائل الاجتماعية، وتربية الفرد، ومن ثم الأسرة، وصولاً إلى المجتمع المسلم، أولوية في تنظيرهم وممارستهم العملية، وابتعدون عن استخدام الوسائل العنيفة كالقوة^(١).

ورغم ذلك فقد واجه الإخوان إخراجات شديدة من قبل عناصرهم، الذين أتوا إليهم طالبين العمل في المجال العسكري، ولما لا يجدوا مرادهم توجه بعضهم إلى منظمات أخرى مثل فتح وغيرها.

وقد قامت حجة الإخوان المسلمين الفلسطينيين في عدم الانخراط في المقاومة المسلحة على النقاط التالية:

- أ- عدم توفر الإعداد اللازم من ناحية الإعداد المادي والبشري، وقلة العناصر.
- ب- عدم افتتاح الجمهور الفلسطيني بجدوى هذا العمل، خاصة ما يتعلق بإيقاع الخسائر في الجيش الإسرائيلي، كما غلب على العمل الفدائي آنذاك الطابع الاستعراضي.
- ت- تذر الفلسطينيون من ظاهرة الفدائيين الذين شكلوا في كثير من الأحيان عبئاً عليهم، ولم يكن لهم ذلك الرصيد الجماهيري^(٢).

ورغم أن هذه المرحلة تعتبر التأسيسية للإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أن تأخير العمل العسكري، وعدم الشروع في مقاومة الاحتلال، أثرا بعض الشيء على الحركة، لاسيما أن هذا التأخير يقف خلفه إشكالية نظرية، في العلاقة بين التحرير والتغيير.

في حين جاءت المراحل التي تم فيها تجاوز هذه التقابلية، واشتغل فيها الإخوان على جبهتي التحرير والتغيير في آن واحد، دون تقديم واحدة على حساب الأخرى، من أكثر المراحل الناجحة بالمعايير كلها في سيرة الإخوان الفلسطينيين، ولعل أبرزها تمثل في نهاية حقبة الأربعينيات والخمسينيات، وفترة انطلاق انتفاضة الحجارة في أواخر الثمانينيات^(٣).

• التحضير لانطلاق المقاومة

لقد مثلت «المسألة الفلسطينية» نقطة توتر مبكرة داخل التنظيم الإخواني في فلسطين

١- الهندي، خالد، عملية البناء الوطني: وجهة نظر إسلامية، مركز البحوث الفلسطينية، نابلس، ١، ١٩٩٩، ص ٤٧.

٢- كان هذا لسان حال جميع قادة الإخوان المسلمين في غزة، حين كانت توجه لهم اتهامات التخلف عن مسيرة المقاومة.

٣- الحروب، مرجع سابق، ص ٢٨. كما تبدى ذلك بصورة واضحة من خلال تصدر الجناح العسكري لحركة حماس لعمليات المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي.

المحتلة، بين جيل الشبان الجدد، والجيل السابق لهم، الذي احتلت عناصره المواقع القيادية في مرحلة ما بعد ١٩٦٧.

كما أن تراجع القضية الفلسطينية عقب اندلاع الحرب العراقية الإيرانية مع بداية عقد الثمانينات، جعلها تتحول إلى قضية هامشية، عربياً ودولياً، حيث ازدادت سياسة الاحتلال الإسرائيلي صلفاً وغروراً، وبتشجيع ومؤازرة من الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد تم تتويج الأمر بالاجتياح الإسرائيلي للبنان، ومحاصرة بيروت عام ١٩٨٢، وشكل هذا الحصار أكبر إهانة تتعرض لها الأمة العربية بعد حرب ١٩٦٧، رغم الصمود التاريخي للمقاومة الفلسطينية فيها.

هذه التطورات جميعها جعلت الإخوان المسلمين في الأراضي الفلسطينية المحتلة يدركون أنهم يواجهون تحدياً حقيقياً يعود إلى أمرين اثنين:

١- تقهقر القضية الفلسطينية إلى أدنى سلم أولويات الدول العربية.

٢- تراجع مشروع الثورة الفلسطينية من إستراتيجية الكفاح المسلح حتى التحرير، إلى التسوية المفروضة على الشعب الفلسطيني.

وانعكس هذا الفهم على إدراك الإخوان بضرورة أن يقوموا بعمل من قبلهم، واتضح أنه في ظل هذين التراجعين، وتراكم الآثار السلبية لسياسات الاحتلال القمعية ضد الشعب الفلسطيني، و«نضوج خميرة» المقاومة لدى الشعب داخل فلسطين، وليس من خارجها، فقد كان لا بد من مشروع فلسطيني إسلامي جهادي، بدأت ملامحه في «أسرة الجهاد» عام ١٩٨١، ومجموعة الشيخ أحمد ياسين عام ١٩٨٣^(١).

علماً بأن الإخوان المسلمين الفلسطينيين، حملوا خلفهم آنذاك تاريخاً طويلاً، محلياً وعربياً، غنياً بالرموز التي اجتمع فيها تراث البطولة والتضحية بنضالات أجيال من الإخوان، وأصبح للجماعة -رغم سنوات العمل السري الطويلة- مؤسسة من الأفكار والتواريخ والرجال، بحيث حافظت على أن تبقى نقاط التوتر الداخلية تحت مستوى الانفجار التنظيمي^(٢).

وفي كل الحالات، لم يكن الميراث النضالي للإخوان المسلمين الفلسطينيين محل نقاش، ولم يتعلق الحوار بدورها التاريخي، أو مبررات وجودها واستمرارها، بل انصبَّ أساساً على تجديد برامجها، ورؤاها، وفاعلية دورها في اللحظة المعاصرة^(٣).

ولم ينظروا في تلك المرحلة بحماسة إلى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في ظل الأوضاع

١- دخان، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

٢- الشريف، كامل، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٤، ص ٦٧.

٣- الحمد، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

السائدة، ولم يتصدر هذا الأمر رأس سلم أولوياتها، لأنها انصبّت على إصلاح الفرد، وإيجاد المجتمع القادر على إقامة الدولة الإسلامية، وبهذا التسلسل تتضح الأوضاع لفتح سجل المقاومة ضد الاحتلال، وهي التي ستبقى عديمة إن تمت دون توفر شروطها الإسلامية^(١).

وقد واجه الإخوان حملات شديدة من الانتقادات الحادة، بسبب تأخرهم عن اللحاق بركب العمل المقاوم في الأرض المحتلة، واتهموا بتخليهم عن الواجب الشرعي المتمثل في الجهاد، مما تسبب في خسارتهم يومياً، ذاتياً وموضوعياً^(٢).

وفي موقف صريح ونادر الوجود في الأدبيات المتعلقة بالقضية الفلسطينية، يسجل الشيخ عبد الله عزام^(٣) أحد قادة الإخوان المسلمين في فلسطين، نقداً حاداً للحركة الإسلامية بإشارته إلى أنها «قَصُرَتْ في تأخرها في التحرك للجهاد، وسبقتها المنظمات العلمانية والقومية والشيوعية، وإذا كانت الحركة الإسلامية تعيب على الأخيرة يساريّتها وانحرافها وتخبطها وإغواءها للشباب، فما ذاك إلا لغيابها عن الساحة»^(٤).

ومع ذلك، يمكن إعادة قرار عدم القيام بأي عمل عسكري ضد الاحتلال للأسباب التالية:

١- كان الإخوان في حالة من الضعف كماً وكيفاً، لا تمكنهم من القيام بأي عمل عسكري ناجح ومستمر في ذلك الوقت، واتفقت الآراء داخل الجماعة على أن الهدف الرئيس يجب أن يكون إعادة بناء التنظيم الإخواني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢- ضعف الإخوان في البلاد العربية في ذلك الوقت، خاصة التنظيم الأم في مصر، مما حرّم المقاومة الإسلامية في الأرض المحتلة من العمق والمساعدات الضرورية.

٣- القناعة السائدة بأن أي عمل عسكري ضد الاحتلال، دون الإعداد النفسي والروحي والمادي سيكون مصيره الفشل.

٤- هناك سبب في غاية الأهمية، يتمثل في حالة الإحباط واليأس المنتشرة في أوساط الفلسطينيين، وبالتالي فإن المقاومة المسلحة ضد الاحتلال، دون مشاركة الشعب المهزوم والمحبط، سيكون لا طائل من ورائها^(٥).

١- الجرباوي، مرجع سابق، ص ٧٢.

٢- الشقاقي، فتحي، مركزية فلسطين والمشروع الإسلامي المعاصر، دار الفكر العربي، بيروت، ط ١، ١٩٨٩، ص ٥٩.

٣- من مواليد قرية سيلة الحارثية شمال مدينة جنين عام ١٩٤١، ثم انتقل مع عائلته إلى الأردن، وهناك انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٩٦٩، حيث انتقل إلى المملكة العربية السعودية، فأفغانستان، مما ساعده ذلك من الاقتراب من الجهاد الأفغاني = الذي أثار اهتمامه في تلك الفترة، وفي سنة ١٩٨٤ انتقل للإقامة في مدينة بيشاور الباكستانية، وهناك أقام مع أسامة بن لادن، واهتم بتقديم المساعدات من جميع أنحاء العالم للمجاهدين الأفغان. استشهد في تفجير سيارته عام ١٩٩٣.

٤- الحروب، مرجع سابق، ص ٣١.

٥- أبو العمرين، مرجع سابق، ص ٢٠١.

وبالرغم من الرغبة الجامحة لدى أفراد الإخوان المسلمين للحاق بالعمل العسكري ضد قوات الاحتلال الإسرائيلي، إلا أن الجماعة كانت تجد عزاءها في نظرتها التاريخية الطويلة للأمور، حيث لم يكن المقصود تحقيق سبق تاريخي بتنفيذ عملية هنا وهناك، بل هي خطة لا ترتبط بأهداف تكتيكية، رغم وجود الغيرة الشديدة لدى شبابهم^(١).

ووفقاً لما ورد في وثائق الإخوان المسلمين الفلسطينيين، فقد بدأت فترة الثمانينات بخروجهم إلى الشارع، وتحويل الحركة إلى قوة أساسية، وارتبط ارتكازها في الشارع بالمواجهات مع سلطات الاحتلال، من مظاهرات وإضرابات وتوزيع المنشورات، وفي نهاية هذه الفترة بدأ الاستعداد لمرحلة الجهاد.

وعلى ضوء حرب عام ١٩٨٢، فقد أدى طرد قيادات وإخلاء مقرات منظمة التحرير من لبنان، إلى تعزيز الاعتقاد لدى الإخوان المسلمين أنها اقتربت من نهايتها بسبب ما اعتبروه «الإفلاس العسكري والأيدولوجي لها».

وعلى ضوء هذه الخلفية، تعززت الميول داخل زعماء الإخوان الفلسطينيين لإعداد أنفسهم، فتطلب الأمر تغييراً هيكلياً، واستعداداً لتبني طريق المقاومة في الصراع ضد الاحتلال، وباتوا في النصف الثاني من الثمانينيات مؤهلين تماماً لإطلاق مشروعهم الجهادي الذي أصبح أكثر إلحاحاً، حيث دخلوا هذه المرحلة أكثر عدداً، وأفضل تنظيمياً، وأمضى قوة.

كما كانت هذه المرحلة غنية في حياة الإخوان المسلمين الفلسطينيين، للأسباب التالية:

أ- فقد تجمعت لديهم الكوادر والصفوف والطاقات الشبابية المندفعة.

ب- وجاءت الصياغة النظرية للأفكار العديدة التي تم تبادلها داخل الحركة فترة طويلة من الزمن تدور حول أولوياتها، والعلاقة بين أولويات التمكين والتحرير، وخلصت منذ سنوات إلى صيغة عضوية متداخلة لهما، تحاول أن تزيل أي تناقض بينهما، أو تقدم أياً منهما على الأخرى، وتقضي بضرورة وإمكانية مباشرة العمل لتحقيقهما بشكل متلازم، وعدم تأخير أي منهما على الأخرى.

ت- كما ساعدت الظروف الموضوعية الفلسطينية، والظروف الذاتية للحركة، على تحديد التاريخ الزمني لمباشرة التطبيق الفعلي لهذه الصيغة^(٢).

ث- التوسع في البناء التنظيمي، وتطوير الهياكل التنظيمية، واستكمال الإعداد الجدي، وإنشاء الأجهزة المختصة.

١- صرح بذلك بعض مسئولو الحركة في لقاءات منفردة.

٢- الناصر، حسام، حركة حماس .. الانطلاق ومعادلة الصراع، فلسطين المسلمة، لندن، ط١، ١٩٩٠، ص٤٠.

ج- ثقل الحركة السياسي الواضح، وترسخ العلاقة بين قطاع غزة والضفة الغربية.

ح- اختبارات القوة التي دخلتها الحركة، داخلياً مع القوى السياسية الأخرى، وخارجياً في بعض المواجهات مع الاحتلال، فكان لا بد من اختبار سلامة الطريق، والتثبت من متانة التنظيم، عن طريق تسخين الجو الميداني من خلال:

١- تنظيم المظاهرات الجماهيرية.

٢- إصدار البيانات والمنشورات السياسية التحريضية، حيث أصدروا الكثير من البيانات بأسماء مختلفة، حفاظاً على الجانب السري، وأحياناً تصدر البيانات بأسماء ثورية من باب إبعاد الشبهات عنهم، وتضليل البحث عن الجهة التي تصدرها.

٣- الاشتباكات مع جيش الاحتلال وجها لوجه.

وهكذا أوجدت القنوات المتجددة لدى الإخوان المسلمين، تعبيرات كثيرة، كان أبرزها المشاركة الفعالة في إشعال انتفاضتي المساجد عامي ١٩٨٢-١٩٨٣، المتمثلة في مظاهرات عارمة خرجت من المساجد، تعلن غضبها وثورتها إثر أحداث اقتحام المسجد الأقصى^(١).

وفي قطاع غزة، وزع الإخوان منشوراً يدعو المسلمين للرجوع إلى شريعة الله، والتمسك بالإسلام لتحرير الأقصى من اليهود، وحاصرت السلطات الإسرائيلية عدداً من مساجد القطاع، أهمها مسجد فلسطين في حي الرمال، والمسجد العمري بمدينة غزة، ومسجد الإصلاح في حي الشجاعية، ومسجد الرحمة بحي الأمل في خان يونس، ومسجد معسكر الشاطئ.

ورغم هذا الحصار، فقد انطلقت المظاهرات بعد الصلاة لتتهف (الله أكبر)، وقام جنود الاحتلال بتفريق المظاهرات بالقنابل المسيلة للدموع، وضرب المتظاهرين بالعصي، وجرح عدد كبير منهم^(٢).

كما تجلّت التحركات الإخوانية في النشاطات السياسية التي انخرطوا فيها، وفي المواجهات الدائرة التي خاضوها ضد الاحتلال، لاسيما مشاركة الكتل الطلابية الإسلامية في مظاهرات عنيفة ضد قوات الاحتلال، ودور الجامعة الإسلامية فيها، خاصة النداء الذي وزعته الحركة بتاريخ ١٦/١٠/١٩٨٦، ودعا لإضراب عام ليوم واحد للاحتجاج على مظاهر الإهانة والتفكيك التي

١- في أعقاب مجزرة المسجد الأقصى عام ١٩٨٢، تدخل الجيش الإسرائيلي في أول يوم بعدها، وحاصر المسجد، ومنع دخولهم دون سن الأربعين، ورفض السماح للمصلين من الضفة والقطاع والجليل من الدخول للصلاة، إلا أنهم باتوا في القدس قبل ذلك بليلة واحدة، تعبيراً عن استنكارهم للمجزرة، واستعداداً للفداء، ورغم الأعداد الكبيرة من جنود الاحتلال، فقد خرجت مظاهرة ضخمة تهتف (الله أكبر)، ولم يستطع الجنود السيطرة عليها، بل وقفوا مشدوهين.

٢- جبارة، مرجع سابق، ص ١٧.

تمارسها سلطات الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزة^(١).

• تحركات جهادية

مع تنامي التيار الإسلامي في فلسطين، وتزايد إقبال الشباب على الإسلام، أصبح الإخوان المسلمون يمتلكون رصيلاً شعبياً، وزخماً إسلامياً، أعانهم على تطوير دورهم في مواجهة الاحتلال، والارتقاء بمستوى مشاركتهم الجهادية.

ف«أسرة الجهاد» التي اكتُشفت في قرى المثلث عام ١٩٨١، والأسلحة التي ضبطت مع بعض أبناء الإخوان بقيادة الشيخ ياسين عام ١٩٨٢، وأدت إلى سجنه مع عدد من إخوانه في سجون الاحتلال، أكد نهج الإخوان بتصعيد المواجهة مع الاحتلال، ومشاغلتهم على مدار الساعة، عبر أحداث ومواجهات يومية في الشارع، وفي ثكناته العسكرية ومستوطناته^(٢).

ومع أن هذه المرحلة في عَقْدَي السبعينيات والثمانينيات، اتسمت بالعمل التربوي والجماهيري والاجتماعي، من أجل التمكين للحركة الإسلامية فكراً ورجالاً، إلا أنها لم تخل من إرهابات للعمل الجهادي، من مظاهرات وشهداء واعتقالات ومجموعات عسكرية وأسلحة، كلها تنبئ أن الحركة ستدخل قريباً جداً ساحة العمل المقاوم.

حيث واجهت القيادة الإخوانية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، أسئلة لا تنقطع من أوساط شبابهم الجدد فيما يتعلق بالموقف من مسألة فلسطين، والحركة الوطنية الفلسطينية.

وكان من الراجح أن الشيخ ياسين خصوصاً حمل تعاطفاً قوياً مع العمل الفدائي، وربما ربطته ببعض المجموعات الفدائية نهاية الستينيات بعض العلاقات، إلا أنه التزم في حوار مع أولئك الشباب الذين التفوا حوله بالموقف الإخواني الفلسطيني الرسمي، أن الجماعة لن «تتورط» في هذه المرحلة في العمل المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلي، وأن مستقبل الصراع على فلسطين مرتبط بعملية التحول الإسلامي في المنطقة العربية، وخاصة في دول الجوار^(٣).

وقد اتضح فيما بعد، أن قيادة الإخوان خطت خطوات مهمة في تأسيس أجهزة سرية وخاصة، استعداداً لتصعيد نشاطهم في مواجهة الاحتلال، وقامت بتأسيس جناحين سريين:

١- جهاز عسكري باسم (المجاهدون الفلسطينيون).

٢- جهاز أمني باسم جهاز (المجد والدعوة).

وظلت هذه الأجهزة سراً مدفوناً لا تعلم به السلطات العسكرية الإسرائيلية، إلى أن انكشف الأمر في تحقيقات السجون بعد حملة الاعتقالات التي جرت في شهر مايو ١٩٨٩، وتم التحقيق مع

١- عز الدين، أحمد، حركة المقاومة الإسلامية حماس في فلسطين، دار التوزيع الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ص١٥.

٢- يكن، فتحي، القضية الفلسطينية من منظور إسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص١٧٦.

٣- صايغ، يزيد، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٨٧٦.

بعض أعضائها^(١).

وبعد استكمال التحضيرات لهذه المرحلة الحاسمة والمصيرية، بدأت الاستعدادات للعمل الجهادي من خلال: جمع السلاح، وإجراء التدريبات.

وشرع الشيخ ياسين بإعطاء أوامره بجمع السلاح، وتوزيعه بين نشطاء الإخوان، إلا أن قوات الاحتلال وضعت يدها عام ١٩٨٤ على السلاح في بيته، واعتقلت معه مجموعة من قيادات الحركة، وضبطت معهم أكثر من أربعين قطعة سلاح، وحكم عليه بالسجن لمدة ١٢ سنة، لكنه مكث أقل من سنة، وأطلق سراحه في صفقة تبادل للأسرى بين «إسرائيل» والجهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل^(٢).

واعتماد الإخوان المسلمون في كثير من الأحيان على إخفاء السلاح الذي يجمعونه في منازلهم، بسبب عدم وجود أماكن أخرى يخفونه فيها، في أجواء من السرية والتكتم الشديدين، حيث لم يكن يشعر فيها أقرب المقربين، بمن فيهم أفراد العائلة^(٣).

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن هياكل العمل العسكري لدى الإخوان المسلمين في الضفة وغزة، أنشئت قبل انطلاق انتفاضة الحجارة أواخر العام ١٩٨٧، وقبل تأسيس حركة حماس بسنوات، أما التأخر في الإعلان عن هذا التوجه، فقد كانت له أسبابه، ومن أهمها:

١- السبب الأمني: فالإخوان المسلمون عموماً، والفلسطينيون على وجه الخصوص، سواء في الأرض المحتلة أو خارجها يتسمون بالتكتم الشديد في أمورهم، وعلى الأخص في النواحي العسكرية والأمنية والسياسية، التي تظل إدارتها في دائرة ضيقة لا تصل إلى أفراد التنظيم، ولا إلى كثير من القيادات.

٢- ما كان يشاع عن الإخوان المسلمين من إجماعهم عن مواجهة الاحتلال قبل الانتفاضة، وما بثته المنظمات العلمانية والوطنية، عن تخاذلهم تجاهه، وبقدر ما كان يثير هذه الدعاية الغيظ والحنق لدى شباب الحركة في الجامعات، فإنه كان يبعث الرضا والارتياح في صفوف القيادة المطلعة على بواطن الأمور^(٤).

• الجهاز العسكري.. المجاهدون الفلسطينيون

أسس الشيخ أحمد ياسين هذا الجهاز عام ١٩٨٢ لتحقيق هدفين رئيسيين هما:

- ١- أبو العمرين، مرجع سابق، ص ٢٢١.
- ٢- شيف، زئيف، ويعاري، إيهود، انتفاضة، ترجمة، دار الجليل للنشر والدراسات، عمان، ط١، ١٩٩١، ص ١٩٤، وقد قامت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، بتنفيذ صفقة التبادل مع الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٥، حيث أطلق سراح ١١٥٠ أسيراً فلسطينياً من ذوي الأحكام العالية والمؤبدة مقابل ثلاث جنود إسرائيليين أسرهم الجبهة في وقت لاحق.
- ٣- تبين ذلك من خلال التحقيقات التي أجرتها سلطات الاحتلال الإسرائيلي مع معتقلي الحركة فيما بعد.
- ٤- أبو العمرين، مرجع سابق، ص ٣٢.

١- جمع السلاح في أيدي عناصر الإخوان، لاستخدامه عند الحاجة.

٢- التدريب عليه، والقيام بأعمال عسكرية ضد جنود الاحتلال.

واعتمد العمل العسكري منذ بدايته على السرية التامة، حيث اقتصر إبلاغ الشيخ لثلاثة فقط من المقربين إليه من أعضاء الإخوان بقراره هذا، وهم: عبد الرحمن تماراز من جباليا، د. إبراهيم المقادمة من البريج، د. أحمد الملاح من الشجاعية.

وقد امتازت محاولة الشيخ هذه بأهمية خاصة، إذ كانت بإشراف مباشر من القيادات الأولى للحركة، بمعنى أنها لم تكن مجرد مغامرة لمجموعة ثانوية على هامش التنظيم، وهو ما يشير إلى الجدية في تبني التوجه الجديد، لاسيما أن بعض الذين اعتقلوا، وحوكموا بسببها، كالشيخ أحمد ياسين، وصلاح شحادة، كانا من أهم قادة حركة حماس في وقت لاحق^(١).

وفي مارس ١٩٨٣ أرسل الشيخ ياسين، عبد الرحمن تماراز إلى الأردن للقاء يوسف العزام عضو البرلمان الأردني عن الإخوان المسلمين، ليطلعه على نشاط الحركة في غزة، وإخباره ببدء الاستعداد للجهاد، والطلب منه المساعدة في الحصول على المعونات، وتم الاتفاق بين الرجلين على دعمه بالمال لشراء السلاح، الذي سلم بدوره للشيخ ياسين.

وبالفعل، فقد اجتمع ياسين برجاله الثلاثة في جلسة سرية بمنزله نهاية أبريل ١٩٨٣، وتقرر في الجلسة إقامة «منظمة المجاهدين»، وبدأ العمل للحصول على السلاح، وتجديد أعضاء المنظمة وتدريبهم، وفي نهاية الجلسة تولى تماراز مهمة الحصول على السلاح^(٢).

وتمكن الجهاز من تجنيد العديد من العناصر، وشراء كميات من السلاح من داخل فلسطين المحتلة، حيث ضخ الإخوان مبالغ مالية مرتفعة لتمويل صفقات شراء السلاح.

وبتاريخ ١٥/يونيو/١٩٨٤، وفي ساعة متأخرة من الليل، وصل رجال الأمن العام الإسرائيلي وقوات من الجيش والشرطة إلى منزله، وبعد تفتيشه عشر على مجموعة كبيرة من الأسلحة من بينها: ٢٢ مسدساً من أنواع مختلفة، ١١ بندقية ورشاش «كارل غوستاف»، ٥ رشاشات من نوع «عوزي»، كمية كبيرة من الذخيرة، قنبلة غير صالحة للاستخدام.

وفي أعقاب اعتقال ياسين، والتحقيق معه، تم اعتقال أعضاء من مجموعة المجاهدين، وبعد شهرين قدمت عريضة اتهام ضدهم، تضم التهم التالية:

أ- العضوية في منظمات دينية هدفها الإضرار بدولة إسرائيل باستخدام القوة.

ب- إقامة دولة إسلامية بدلاً من دولة إسرائيل.

١- الحروب، مرجع سابق، ص ٢٥.

٢- عدوان، عاطف، إبراهيم المقادمة.. القائد والداعية المجاهد، مركز أبحاث المستقبل، غزة، ط١، ٢٠٠٤، ص ٤٠.

ت- التورط في شراء سلاح، وحيازته بدون ترخيص.

وقال القضاة الإسرائيليون في حيثيات الحكم: «إن هذا التنظيم الذي ناقشه هنا لا يشبه التنظيمات المعروفة لدينا في المناطق، فأمامنا مجموعة من المتشددین في عقائدهم الدينية، على الرغم من اختلاف كل منهم عن الآخر في ثقافته وتجاربه في الحياة، تجمعوا على أساس ديني، وهدف سياسي للإضرار بدولة إسرائيل بقوة السلاح، وهي جماعة انتقلت من العقيدة الدينية إلى العمل، واستعدت بكميات من الأسلحة، ومن الصعب أن نتصور ماذا كان سيحدث لو لم يتم اكتشاف هذا التنظيم، أو تم استخدام هذا السلاح، فهم يهدفون إلى القضاء على دولة إسرائيل، وإقامة دولة إسلامية بدلاً منها، ولم يعد ذلك في إطار الأحلام، بل دخل في إطار الواقع والتنفيذ العملي»^(١).

وحكم بالسجن لمدة ١٢ عاماً على الشيخ ياسين، و١٢ عاماً على عبد الرحمن تمار، و٩ سنوات على محمد أبو سمرة، و١٠ سنوات على كل من: محمد شهاب، محمد رمضان، نايف جلاوي، وما لبث أن أطلق سراح ياسين منتصف عام ١٩٨٥، في إطار عملية تبادل الأسرى بعد أن قضى ١١ شهراً فقط من مدة عقوبته.

وقد توقف عمل الجهاز العسكري إلى أن خرج ياسين، ليعيد بناءه على أسس جديدة، ولعل اعتقاله، أبقى التنظيم محافظاً على هيكله وأمنه ووجوده، مما يدل على درجة السرية الكبيرة التي عمل بها.

وشكلت مرحلة ما بعد إطلاق سراحه، تجسيدا لتوجه جديد لدى الإخوان المسلمين يقضي بتفعيل الصدام ضد المحتل الإسرائيلي، في قرار رئيسي اتخذته قيادة الإخوان في فلسطين صيف عام ١٩٨٥.

ويقوم القرار على دعوة كافة عناصرها في كافة أماكن تواجدهم في فلسطين المحتلة، إلى المشاركة في المظاهرات والصدامات مع قوات الاحتلال، بل والدعوة لها، وهو القرار الذي أعطى الضوء الأخضر للمشاركة الإسلامية في بعض التظاهرات حينئذ^(٢).

وما لبث أن بدأ صلاح شحادة مع بداية عام ١٩٨٦ بتشكيل المجموعات العسكرية، وبإشراف مباشر من الشيخ ياسين دون علم باقي القيادات الإخوانية، واعتمد الجهاز منذ بداية عمله نظام النقاط الميته في الاتصالات، واستخدام الأرقام لأعضائه بدلا من الأسماء الحقيقية أو الأسماء المستعارة، وكان منفصلا تماما عن الجسم التنظيمي وبقية الأجهزة للحركة.

١- شكيد، مرجع سابق، ص ٧١.

٢- جهاد، محمد جهاد، الانتفاضة المباركة ومستقبلها، مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١، ١٩٨٨، ص ٤١.

واهتمت قيادة الجهاز باختيار العناصر المناسبة له، ممن توفرت لديهم الصفات والمميزات الهامة، أهمها: الخبرة والصلابة والسرية التامة، والتمويه حتى على الإخوان.

وقد وصلت السرية في عمل عناصر الجهاز، درجة أن الإخوان في بعض المناطق تحفظوا في علاقاتهم مع بعض أعضاء هذه المجموعات العسكرية ظناً منهم أنهم تركوا الحركة، ولعل أبرز درجات التمويه التي استخدمت، هو ما فعله محمد نصار الذي تخصص في إحضار السيارات الإسرائيلية داخل فلسطين المحتلة، واعتقل عدة مرات على قضايا مدنية، مما أبعد عنه الشكوك من قبل أجهزة الأمن الإسرائيلية، خاصة وأنه واحد من المحررين في تبادل الأسرى عام (١٩٨٥).
وقد قام الجهاز بعدة عمليات طعن وإطلاق نار وزرع العبوات الناسفة، وتصفية العملاء، من خلال بعض المجموعات العسكرية، واستطاع القيام بعدة أعمال أهمها:

١- تكوين خلايا عسكرية.

٢- جمع المعلومات اللازمة عن تحركات الجيش الإسرائيلي.

٣- تدريب العناصر تدريباً عسكرياً عالياً^(٢).

• الجهاز الأمني .. الجهاد والدعوة - المجد

أدى الكشف الإسرائيلي عن الجهاز العسكري للإخوان المسلمين الفلسطينيين، إلى اتخاذ قرار من قبل الشيخ ياسين سنة ١٩٨٦ بإنشاء الجهاز الأمني، الذي أنشئ لتحقيق أهداف رئيسة تمثلت فيما يعرف بالجهاد الداخلي، لتحسين الجبهة الداخلية، ولذلك فقد كان هذا الجهاز بمثابة جهاز استخبارات وردع، وتركزت أهدافه بما يلي:

أ- حماية صفوف الحركة من الاختراق، سواء من قبل العدو أو التنظيمات الأخرى.

ب- رصد تحركات العدو العسكرية والمدنية والوجود الاستيطاني.

ت- جمع معلومات عن المشبوهين، تجار المخدرات، اللصوص، ومروجي الفساد.

ث- نشر الوعي الأمني العام داخل المجتمع، بإصدار النشرات التي توضح أساليب العدو.

ج- التحقيق مع العملاء وتأديبهم أو تصفيتهم.

وقد تبين فيما بعد أن الجهاز قام بتنفيذ بعض الأعمال قبل دخول الانتفاضة، مثل قتل عملاء خطرين، ومهاجمة أماكن مشبوهة^(٣).

١- أبو عامر، مرجع سابق، ص ٩١.

٢- جبارة، مرجع سابق، ص ١١٤.

3- Amnon Cohen, Political Parties in the West Bank Under Jordanian Rule 1948/1967-, Cornell University Press, 1980, p228.

وقد سمي هذا التنظيم السري اختصاراً باسم (مجد)، وهي الحروف الأولى من (منظمة الجهاد والدعوة)، حيث انتشر بواسطة شبكة من الخلايا، وبدأ العمل ضد من اشتبه بقيامهم بأعمال غير أخلاقية، من خلال الخطف والتحقيق مع الذين أُشْتُبِه بتعاونهم مع إسرائيل^(١).

• الهيكل التنظيمي للإخوان الفلسطينيين

تكونت هيكليّة الإخوان المسلمون في الأراضي المحتلة من الهيئة الإدارية المشكلة من بعض القيادات البارزة، وإلى جانبها مجلس الشورى العام الذي اجتمع لأول مرة عام ١٩٦٨. وفي هذه المرحلة كان مجلس الشورى الذي بلغ عدد أعضائه عشرين أخاً في أوائل السبعينيات، يعين تعييناً، ولم تكن مرحلة الانتخابات بعد قد دخلت إلى جسم التنظيم. وحسب بعض الإفادات، فإن مجلس الشورى لم تعقد له انتخابات دورية، بحكم الظروف الأمنية في الضفة الغربية وقطاع غزة، كما أنهم لم يشهدوا انتخابات داخلية بين صفوفهم خلال السبعينيات والثمانينيات، وغالباً حدثت الانتخابات لأول مرة في التسعينيات^(٢). وفي مراحل لاحقة، كان نقباء كل منطقة ينتخبون مجلس الشورى العام، الذي ينتخب بدوره الهيئة الإدارية العامة للحركة، حيث توزع الهيكل التنظيمي للإخوان المسلمين الفلسطينيين في ضوء التقسيمات التالية:

١- قسّم الإخوان الضفة والقطاع إلى عدة محافظات، قُسمت بدورها إلى عدة مناطق، وكل منطقة منها تنتخب مجلس شورى خاص بها.

٢- مجلس الشورى العام للضفة والقطاع يكون وفقاً لعدد المنتظمين في صفوف الإخوان المسلمين، بمعدل عضو واحد عن كل خمسين أخاً، ويقوم كل مجلس شورى محلي بانتخاب ممثليه في مجلس الشورى العام، الذي يقوم بانتخاب الهيئة الإدارية الذي سمي المجلس التنفيذي، ويسمى مكتب فلسطين، المكون من سبعة أفراد.

٣- يقوم أعضاء الهيئة الإدارية لكل منطقة بتوزيع الصلاحيات ومهام العمل بينهم، ما بين مسئول تربوي، مالي، طلابي... إلخ^(٣).

علماً بأن التنظيم الفلسطيني للإخوان المسلمين وصل عشية هزيمة حزيران يونيو ١٩٦٧ إلى وضع لا يحسد عليه، بعد أن تناقصت عضويته إلى عدد قليل من العناصر، معظمهم من المدرسين الذين لم يقوموا بأي نشاط يذكر^(٤).

١- شكيد، مرجع سابق، ص ٧٢.

٢- صرح بذلك عدد من قيادات الإخوان في لقاءات منفردة.

٣- أبو العمرين، مرجع سابق، ص ٢٢١.

٤- يكن، مرجع سابق، ص ٢١.

وكدليل على القلة العددية في تلك المرحلة، فقد كان النقيب في الإخوان مثلاً، بدلاً من إشرافه على أسرة أو أسرتين من الأسر الإخوانية، فإنه يكلف برعاية ثلاث وأربع أسر في بعض الأحيان، نظراً لقلة الإقبال على الدعوة في بداية السبعينيات.

وكان عدد الإخوان في جلسات الأسر يتراوح بين سبعة إلى عشرة في الأسرة الواحدة، مما يدل على أن الأمور كانت سرية، ولم يسمع أحد في الجماعة عن الشكل التنظيمي في بداية هذه المرحلة.

وبلغة الأرقام، وحسب التقديرات الإخوانية، فقد وصل عددهم في قطاع غزة عام ١٩٦٩ إلى خمسين أخاً فقط، فيما ارتفع العدد بين العامي ١٩٨٢-١٩٨٧ إلى ٩٥٠ أخاً، في حين لم يتم التوصل إلى رقم دقيق لنظرائهم في الضفة الغربية^(١).

وقد ركز الإخوان المسلمون الفلسطينيون في عملية استقطاب العناصر على فئتي الطلاب والمعلمين بشكل أساسي، فيما كان هناك قصور لديهم في استقطاب فئة العمال، بسبب انشغالهم في بيوتهم، وعدم وجود وقت لديهم، والتعب الذي يصابون به من كثرة العمل.

وجاءت المناهج التربوية المقررة على الإخوان المسلمين في قطاع غزة متشابهة، وقريبة من مستويات التفكير بشكل عام، مما شكل إمكانية قائمة لدمج الفئات المتشابهة والمتجانسة مع بعضها البعض كالطلاب والعمال، وهكذا.

• الجانب المالي

اعتبرت المسألة المالية أحد الإشكالات المهمة للإخوان المسلمين الفلسطينيين في تلك المرحلة، فلم تكن لديهم تلك الإمكانيات المالية لتغطية أنشطتهم، وبالتالي فقد اعتمدوا على تبرعات المتطوعين، ولذلك فإنهم ينحون باللائمة على الجانب المالي الذي لو توفر بشكل متيسر لخرجت الأنشطة والفعاليات أكثر تحسناً وإنتاجاً.

وتجمع العديد من المصادر على أن المرحلة الأولى للإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧، امتازت بمحدودية الميزانيات المالية، ويقدر أحدهم ميزانية منطقة مثل مخيم الشاطئ بمبلغ ٥٠٠ دينار أردني، ما يعادل ٧٥٠ دولار أمريكي، لكنه لم يوضح هل هي ميزانية شهرية أم سنوية^(٢).

ويمكن تحديد أهم المصادر التمويلية التي اعتمدت عليها الجماعة، بـ:

١- الأموال التي تجمعها الحركة من أنصارها، أو من المتعاطفين معها، أو من عامة الشعب

١- صرح بذلك عدد من قيادات الإخوان في لقاءات منفردة.

٢- صرح بذلك عدد من قيادات الإخوان في لقاءات منفردة.

داخل الأرض المحتلة، وتأتي على هيئة زكاة، هبات، أو تبرعات لمساعدة الفقراء والمحتاجين، يقدمها المحسنون إلى الهيئات والمؤسسات الإسلامية التي تشرف عليها جماعة الإخوان المسلمين.

وتذهب معظم الأموال المستمدة من هذا المصدر إلى مساعدة الأسر الفقيرة، وبناء المساجد ورياض الأطفال، وأية أعمال خيرية أخرى، ولذلك فإن كثيراً من سكان القطاع كانوا يقبلون، بدوافع أخلاقية أو دينية، وأحياناً بدوافع سياسية، على التبرع بالأموال للحركة، أو للجان الزكاة التابعة لها، أو المتعاطفة معها.

٢- مساهمة بعض المدرسين والموظفين بمبالغ مالية في تمويل هذه الأنشطة، من خلال اشتراكاتهم الشهرية^(١).

٣- الأموال التي تتلقاها الحركة من مصادر غير رسمية خارج فلسطين، حيث يقوم أنصارها وأصدقائها في الخارج بجباية هذه الأموال من المسلمين.

٤- الدعم الصادر عن الحركة الإسلامية العالمية في مختلف الأقطار، لاسيما الأردن ومصر والسعودية ودول الخليج، حيث قدمت الدعم المالي للإخوان في فلسطين بدافع الأخوة الإسلامية لمناصرتها، فضلاً عن تعزيز مكانة الاتجاه الإسلامي في مواجهة القوى العلمانية في الأرض المحتلة^(٢).

وقد توزعت أوجه الإنفاق في حركة الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة بين العامي ١٩٦٧-١٩٨٧ على الأوجه التالية: الناحية الإعلامية، الفقراء والمحتاجين، الطلبة والدارسين، أنشطة المساجد، أسر المعتقلين، والأنشطة الرياضية.

• الموقف الإسرائيلي من النشاط الإسلامي

تعرضت الأراضي الفلسطينية المحتلة، وتحديدًا قطاع غزة والضفة الغربية لمعاملة قاسية منذ احتلال الجيش الإسرائيلي لها عقب حرب العام ١٩٦٧، حيث عانى المسلمون الأثريين تماماً كنظرائهم الإخوان المصريين، ما يعني أن النشاط الذين ورثتهم سلطات الاحتلال كانوا متمرسين على العمل السري.

في المقابل، «خدع» الإسرائيليون أنفسهم وفقاً لتعبير الدبلوماسي الأمريكي السابق «دان كرتسر»، الذين صدقوا أن الإسلاميين في الأراضي المحتلة ينحصر اهتمامهم الوحيد في توعية الفلسطينيين بأموالهم الدينية، لاسيما وأنها كانت عبارة عن «جزيرة في بحر إسلامي»، وعرضة

١- من المعلوم أن الإخوان يقدمون مساهمة شهرية لصالح صندوق الحركة بواقع ٥، ٢٪ من الدخل الشهري للقادر منهم.

٢- أبو عزة، عبد الله، مع الحركة الإسلامية في الدول العربية، دار القلم، الكويت، ط١، ١٩٨٦، ص ١٥٣.

لمخاطر نهضة إسلامية^(١).

وقد استند هذا الموقف الإسرائيلي إلى تفكير تاريخي لوزير الدفاع الأسبق «موشيه دايان» الذي قال: «لا بأس بالإسلاميين ما داموا لا يطلقون النار، ويفجرون القنابل، وما دام لم يكن هناك قلاق، فإنه ينبغي علينا معاملة الإسلام كما نعامل المسيحية»^(٢).

لكن الإسرائيليين أخطأوا تماماً في قراءة الموقف في الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد اعتقدوا أن الإخوان الفلسطينيين سيقوضون ما كان دعماً مطلقاً للعقيدة العلمانية والقومية لمنظمة التحرير، ولهذا سمحوا لهم بالازدهار، للدرجة التي جعلت «إسحاق سيغيف» الحاكم العسكري الإسرائيلي يصف إستراتيجية إسرائيل المدروسة لتعزيز موقع الإسلاميين على حساب منظمة التحرير والشيوعيين، بالقول: «منحتني الحكومة الإسرائيلية ميزانية، وقامت السلطة العسكرية الإسرائيلية بمنحها للمساجد»^(٣).

لكن ما بدا كسياسة تساهل ديني من قبل السلطات الإسرائيلية تجاه الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧، إلا أنه لم يكن لديها قوة بشرية كافية على الأرض، حتى إذا كانت لديها رغبة في تحدي الإسلاميين، ولم يكن لديها ما يكفي من خبراء اللغة لترجمة الخطب التي يتم إلقاؤها في المساجد الخاضعة لسيطرة الإسلاميين، أو حتى القيام بدوريات كافية في مختلف أنحاء الأراضي المحتلة^(٤).

وفي وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، استنتجت المحللة «مارثا كيسلر» بأن تل أبيب تلعب بالنار، معربة عن تقديرها بأن المسؤولين الإسرائيليين لم يكونوا يدركون مدى خطورة ما سيؤول إليه الوضع في الضفة والقطاع، للدرجة التي تم فيها إحباط محاولة لمسؤولين في وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاغون» لقيام «السي آي إيه» بتحليل ظاهرة الإسلاميين الفلسطينيين نتيجة تدخل أصدقاء «إسرائيل» في إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق «رونالد ريغان»^(٥).

وقد أجاد «كرتزر» الدبلوماسي الأمريكي العريق طرح التساؤل الخطير أمام رئيس

١- ماغوو، مرجع سابق، ص ٦٠.

٢- شالوم هراري، نشأة حماس في غزة، هآرتس، ١٢/٨/١٩٨٩.

3- David Shipler, Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land, Penguin, 2002, p156.

4- Robert Dreyfuss, How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam, Metropolitan Books, 2005, p208.

٥- الرئيس الـ٤٠ للولايات المتحدة الأمريكية بين عامي ١٩٨١-١٩٨٩، عمل بمجال التمثيل قبل أن يدخل المجال السياسي بداية الخمسينيات، وعند وفاته كان مصاباً بالزهايمر، ويعتبر أحد أكبر رؤساء أمريكا عمراً، في عهده برزت أنيابها، فتجحت باستعادة بنما ونيكاراغوا وتشيلي، وفي أفريقيا استعادت أثيوبيا وأنغولا. أوعز إلى "إسرائيل" عام ١٩٨٢ باجتياح لبنان للقضاء على القوة العسكرية الفلسطينية، ووضع في سلم أولوياته محاربة الاتحاد السوفيتي ومعاداة الشيوعية وتفكيك حلف وارسو، وحقق ما وعد به الأميركيين.

الوزراء الإسرائيلي الأسبق «شمعون بيريز»^(١) منتصف عام ١٩٨٥، حول التساهل الإسرائيلي مع الإسلاميين الفلسطينيين بقوله: «هل تعتقدون حقاً أنكم تستطيعون تطويع هؤلاء الرجال؟»^(٢)

كما شهد العام ١٩٨٧ إعداد وثيقة إسرائيلية سرية وضعت على مكاتب أكثر من مائتي شخصية حكومية إسرائيلية وفي جهاز الأمن العام، والجهاز الإداري، وأبرز صانعي القرار في تل أبيب، ونصت الوثيقة على أن إسلاميي الأراضي المحتلة، يريدون حكومة بأسلوب ديني في كل فلسطين التاريخية.

لكن رسالة الوثيقة كانت: «أنَّ الإسلاميين لا يشكلون تهديداً أمنياً مباشراً على إسرائيل، حيث كتب الجنرال «شايفي إيرز» الحاكم العسكري أواخر الثمانينات في مقدمة التقرير: «إنَّ إسلاميي الضفة وغزة يريدون التركيز على عملية الفوز بالقلوب والعقول.. ولاحقاً فقط سيبدأون كفاحاً نشطاً ضد إسرائيل»^(٣)

• الخاتمة

بعد أكثر من أربعين عاماً من بدايات إعادة التأسيس لتنظيم الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وقطاع غزة، بات من غير المشكوك فيه أن هذا التنظيم تمكن من فرض وجوده على أرض الواقع، ولم يعد من جدوى لمحاولات التهميش والتغيب.

وليس هناك من شك في أن الحركة الإسلامية في فلسطين، وأعني الإخوان المسلمين، قد أصابوا قدراً من النجاح، وقدراً آخر من الإخفاق، وهذا أمر طبيعي في نشأة الحركات السياسية، ومع ذلك فإنه من السابق لأوانه التقرير بشكل نهائي، وخاصة في ظل الظروف الراهنة التي تمر بها القضية الفلسطينية، والإخوان أنفسهم، في مدى نجاحهم أو إخفاقهم.

لقد أنجز الإخوان الفلسطينيون العديد من المنجزات الفكرية والحضارية والجهادية للمجتمع الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وبالرغم من ذلك، فليس من الموضوعية في خاتمة هذه الدراسة الاستطراد باتجاه التزكية والإشادة فحسب، وإنما يتحتم البدء باتجاه المراجعة الذي يحمل معاني هامة وضرورية لمسيرة الحركة.

فقد وقع الإخوان المسلمون الفلسطينيون خلال فترة الدراسة في مزالق فكرية، وخصوصاً

١- الرئيس الإسرائيلي الحالي، وهو سياسي ووزير في الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة، يعتبر الممثل الحقيقي للزعامة الجديدة في إسرائيل، اعتبر المنظر الرئيسي للتحالف مع فرنسا، من خلال دوره النافذ في البدء بالمشروع النووي في ديمونا، رئيس وزراء إسرائيل مرتين، وتقلد وزير الدفاع، والخارجية. في أوائل ومنتصف التسعينات، لعب دوراً رئيسياً في تحريك عملية التسوية مع الفلسطينيين، وحاز على جائزة نوبل للسلام بالشاركة مع ياسر عرفات وإسحاق رابين عام ١٩٩٤.

٢- يديعوت أحرونوت، ١١/٧/١٩٨٥.

3- John Wallach, The New Palestinian: The Emerging Generation of Leaders, Prima Publishing, 1992, 213.

في اختلاق «التقابلية الموهومة» بين الوطني والإسلامي، وما أنتجته من فرز للألوان السياسية، بحيث صارت صفة الإسلاميين تنفي صفة الوطني، والأخيرة تنفي الأولى، مع أن مفهوم الوطنية بمعناه الفلسطيني اتخذ لوناً مختلفاً عن الوطنيات العربية، لأنها حملت مدلولات نضالية وكفاحية ضد المحتل الأجنبي خلال مرحلة الاستعمارين البريطاني والصهيوني.

ونظراً للظروف غير الطبيعية التي نشأ فيها الإخوان المسلمون في الضفة الغربية وقطاع غزة، فقد كانت لذلك آثار سلبية، أهمها على المستوى التنظيمي الداخلي، لاسيما في غياب روح النقد الذاتي البناء والفاعل.

ففي الوقت الذي برع فيه الإخوان بنقد الآخر، وليس نقد أنفسهم لأنه كشف لهم ولأخطائهم وخطاياهم، فإنهم تصعبوا جداً القيام بنقد ذاتي، لأنها مواجهة للذات، علماً بأن هذا النقد يفرض -فيما لو حل كنمط تربوي في الحركة- نقاشاً عقلانياً صارماً، بعيداً عن المفهوم التقليدي للنقد على أنه مجرد تخريب وطعن بقسوة الأشخاص.

ومع أن الإخوان المسلمين الفلسطينيين التزموا مبادئ الإسلام، والعمل على هداها، إلا أن ذلك لم يعطهم شهادة الصواب باسم الإسلام في كل عمل عملوه، فلا شك أن كل عمل أو قول بشري قابل للصواب، كما أنه قابل للخطأ والانحراف: خطأ في فهم المطالب الدينية أو تفسيرها، وخطأ في تنزيل هذا الفهم على أرض الواقع، وخطأ في التنفيذ على أرض الميدان هنا وهناك.